كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الرابع عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

بيان

توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد . لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين .

أحدهما : قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس

والآخر : أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه ؛ علما بأن رزقه الموت والجوع ، وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك ، وأنه كذا قضى وقدر له ، فبهذا يتم التوكل للمنفرد

ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا . وكذا سائر أبواب الإيمان . فإذاً لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب، وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب

فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم ، فهذا حرام ، وقد يفضي إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة ، وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم . ونفسه أيضا عيال عنده ، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة . فإن كان لا يطيقه ، ويضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عليه عبادته ، لم يجز له التوكل

ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصلح لك التصوف ، الزم السوق . أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب :

فإذاً بدنه عياله ، وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله . وإنما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع ، وليس له ذلك في عياله

وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا ، وملازمة البلاد والأمصار ، أو ملازمة البوادي التي لاتخلو عن حشيش وما يجرى مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ، ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر . والتوكل فى الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل فى البوادى . وكل ذلك من الأسباب ، إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها ، فلم يعدّوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم ، وشدة حرصهم ، وقلة صبرهم على الأذى فى الدنيا لأجل الآخرة ، واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل

ومن نظر فى ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه . أما ترى الجنين فى بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرّته بالأم حتى تنتهى إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرّة ، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين. ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت ، اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل فى قلبها من نار الحب . ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذى لايحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لايحتمل الغذاء الكثيف ، فأدرّ له اللبن اللطيف فى ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ . فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض ، لأنه مانقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فإنه إن لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته . ثم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب ، وكانت شفقته مفرطة جدا ، فكان يطعمه ويسقيه فى اليوم مرة أو مرتين ، وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة ، والمودة والرقة ، والرحمة على قلوب المسلمين ، بل أهل البلد كافة ، حتى أن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورقّ عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته . فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لايشفقون عليه لأنهم رأوه فى كفالة الأم والأب

وهو مشفق خاص ، فما رأوه محتاجا . ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين ، أو على جماعة ، حتى يأخذونه ويكفلونه . فما رؤي إلى الآن فى سني الخصب يتيم قد مات جوعا، مع أنه عاجز عن الاضطراب، وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التى خلقها فى قلوب عباده . فلماذا ينبغى أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل فى الصبا ، وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ؟ نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ، ولكنها واحدة ،وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ، وبترك التنعم ، والاقتصار على قدر الضرورة. ولقد أحسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ، ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه

فأقول . إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا ، فعليه الكسب ، ولا معنى للتوكل فى حقه ، فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى . فما للبطال والتوكل ! وإن كان مشتغلا بالله ، ملازما لمسجد أو بيت ، وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه فى ترك الكسب ، ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه فى قلوب الناس ، حتى يحملون إليه فوق كفايته . وإنما عليه أن لا يغلق الباب ، ولا يهرب إلى جبل من بين الناس . وما رؤي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو فى الأمصار فمات جوعا ، ولا يرى قط . بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه . فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له. ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه فى قلوب الناس ، وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها . فقد دبّر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر ، واشتغل به ،وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب . نعم ما دبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان ،والثياب الرقيقة ، والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا

فى بعض الأحوال : لـكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لامحالة . والغالب أنه يصل أكثر منه ؛ بل يصل مايزيد على قدر الحاجة والكفاية . فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة ، وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة . وذلك قد لايحصل بغير اضطراب ، وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب ، وإنما يحصل نادرا . وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب ؛ فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته؛ فلذلك لايطمئن إلى اضطرابه ؛ بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن ، إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب

فإذا انكشفت هذه الأمور ، وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس ، أثمر ماقاله الحسن البصرى رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة فى عيالى وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا ، والأرض رصاصا ، واهتممت برزق ، لظننت أنى مشرك

فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه ، ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه . وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين ، الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما

فإذاً عليك بالقناعة بالنذر القليل ، والرضا بالقوت فإنه يأتيك لامحالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لاتحتسب . فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [١]) الآية إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته . وهذا المضمون مبذول لـكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه . فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق . بل مداخل الرزق لاتحصى ، ومجاريه لايهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه فى السماء . قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٢]) وأسرار السماء لايطلع عليها . ولهذا دخل جماعة على الجنيد ، فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق . فقال

[١] الطلاق : ٢ ، ٣ [٢] الذاريات : ٢٢

إن علمتم أيّ موضع هو فاطلبوه. قالوا نسأل الله. قال إن علمتم أنه ينسا كم فذكّروه. فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون. فقال التوكل على التجربة شك. قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة .

وقال أحمد بن عيسى الخراز : كنت في البادية فنالني جوع شديد ، فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول

ويزعم أنه منـا قريب   وأنا لانضيع من أتانا
ويسألنـا على الإقتار جهدا   كأنـا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه ، وقوي قلبه ، ولم يضعف بالجبن باطنه ، وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى ، كان مطمئن النفس أبدا ، واثقا بالله عز وجل . فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا

فإذاً تمام التوكل بقناعة من جانب ، ووفاء بالمضمون من جانب . والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق ، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك. ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب ، بل لمسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب ، بل لقلب الكاتب ، فإنه أصل حركة القلم . والمحرك الأول واحد ، فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد ، أو يقعد في الأمصار وهو خامل

وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم ، فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يليق بأهل الدين ، فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام . بل يأتيه أضعافه . فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب . فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين ، وهو بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة ، والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه ، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن . فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن

فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ، لأنه تفرغ لله عز وجل . وإعانة للمعطى على نيل الثواب .

ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى ، علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب . ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق ، والعاقل المحروم ، فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه . إذ لو رزق كل عاقل ، وحرم كل أحمق ، لظن أن العقل رَزَقَ صاحبَه . فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ، ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا   هلكن إذاً من جهلهن البهائم

بيان

أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤّال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك ، وهم محتاجون إلى الطعام . فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز ، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين ، وبعضهم رغيفا رغيفا ، ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه ، فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم . فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين ، فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعتُه بغلام يكون موكلا به ، إلى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه . ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام ، وهو ساكن ، فإنى أختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر . ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ، ولا خلعة له . ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا إليه شيئا ، فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ، ولا قائلا ليته أوصل إلىّ رغيفا ، فإنى غداً أستوزره وأفوّض ملكى إليه . فانقسم السؤّال إلى أربعة أقسام ، قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ، وقالوا من اليوم إلى غد فرج ، ونحن الآن جائعون ، فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فى الميعاد المذكور ، فندموا ولم ينفعهم الندم . وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ، ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع ، فسلموا من العقوبة ، وما فازوا بالخلعة

وقسم قالوا إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا، ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفا واحداً، ونقنع به. فلعلنا نفوز بالخلعة، ففازوا بالخلعة . وقسم رابع اختلفوا في زوايا الميدان، وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان، وقالوا إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد، وإن أخطئونا قاسينا شدة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك التسخط، فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فانفعهم ذلك، إذ اتبعهم الغلمان في كل زاوية، وأعطوا كل واحد رغيفا واحداً

وجرى مثل ذلك أياما، حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة في زاوية، ولم تقع عليهم أبصار الغلمان، وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد. فقال اثنان منهم: ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا، فلسنا نطيق الصبر. وسكت الثالث إلى الصباح، فنال درجة القرب والوزارة . فهذا مثال الخلق. والميدان هو الحياة في الدنيا. وباب الميدان الموت. والميعاد المجهول يوم القيامة. والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. والمتعلق بالغلمان هو المعتدي في الأسباب. والغلمان المسخرون هم الأسباب. والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون. والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل، والأسباب تتبعهم، والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور. فإن مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى

وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون، وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد. ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة. وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف

الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار

فمن حصل له مال بإرث أو كسب، أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت، فيأكل إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدخره

إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية . فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا ، وهي الدرجة العليا

الحالة الثانية: المقابلة لهذه ، المخرجة له عن حدود التوكل ، أن يدخر لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلا . وقد قيل :لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة :الفأرة، والنملة، وابن آدم

الحالة الثالثة : أن يدخر لأربعين يوما فما دونها . فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه . فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ،ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار . نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل .فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له . وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية .ويسمى أصحاب النهايات السابقين،وأصحاب البدايات أصحاب اليمين .ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات .وكذلك السابقون .وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا . بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل.وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس،فإن ذلك كالممتنع وجوده. أما الناس فتفاوتون في طول الأمل وقصره .وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات. وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان . وبينهما درجات لا حصر لها . فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة .وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد ،فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ؟ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما ، لسر جرت به و بأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور،كما قال عليه السلام « إِنَّ اللهَ [1] خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر

فإذاً ما وراء السنة لا يدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب،فهو خارج

---

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا :أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جدا وهو باطل

عن مقام التوكل ، غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسبابه الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا . ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله . ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ، ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة . ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا وإن ضعف قلبه ، فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر . وقد روي في (١) الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه ، فغسلاه وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه « إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَوْلَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبُعِثَ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ » قلنا وما هي يا رسول الله؟ قال « كَانَ صَوَّاماً قَوَّاماً كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لِصَيْفِهِ وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشِّتَاءِ لِشِتَائِهِ » ثم قال صلى الله عليه وسلم « بَلْ أَقَلُّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث . وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف . وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ، ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق ، بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق . فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة ، والذكر ، والفكر ، فالادخار له أولى . بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته ، وكان لا يتفرغ قلبه إلا به ، فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ، ورب شخص يشغله عدمه . والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها . ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق ، وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما . بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله .

---

(١) حديث انه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ـ الحديث : وفي آخره من أقل ما أتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجد له أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا

تعالى . وعمدة الاشتغال بالله تعالى عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار . وهذا كله حكم المنفرد

فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله ، جبرا لضعفهم ، وتسكينا لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين . فادخاره مايزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل . فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب ، مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . وقد[1] ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة[2] ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد .[3] ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْفِقْ بِلَالاً وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالاً » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « إِذَا سُئِلْتَ فَلَا تَمْنَعْ وَإِذَا أُعْطِيتَ فَلَا تَخْبَأْ » اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم[5]

وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول « مَا يُدْرِينِي لَعَلِّي لَا أَبْلُغُهُ »

وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله ، إذ كان لا يثق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته ، فإن أقوياء أمته ، ضعفاء بالإضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته . بل أخبر[6] أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، تطييبا لقلوب

---

(١) حديث ادخر لعياله قوت سنة : متفق عليه وتقدم في الزكاة

(٢) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد : تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها

(٣) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا : البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره

(٤) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ : الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو تتمة حديث الق الله فقيرا قد تقدم

(٥) حديث انه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول مايدريني لعلي لا أبلغه ابن الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٦) حديث ان الله يحب ان تؤتى رخصه ـ الحديث : أحمد والطبراني والبيهقي من حديث ابن عمر وقد تقدم

الضعفاء ، حتى لاينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم

وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر . ويدل عليه ماروى أبو [1] أمامة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفّة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم « فَتِّشُوا ثَوْبَهُ » فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره . فقال صلى الله عليه وسلم « كَيَّتَانِ » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه . وهذا يحتمل وجهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى (تُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ [1]) وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه ، فهو نوع تلبيس . والثانى أن لايكون ذلك عن تلبيس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله ، كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه . وذلك لايكون عن تلبيس ، فإن كل مايخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة

وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروي عن بشر ، قال الحسين المغازلى من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال ومارأيته قام لأحد غيره قال ودفع إليّ كفا من دراهم وقال : اشترى لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام الطيب . وما قال لى قط مثل ذلك . قال فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه ، ومارأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا . وبقى من الطعام شيء كثير ، فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف . فعجبت من ذلك وكرهته له . فقال لى بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن . فقال ذاك أخونا فتح الموصلى ، زارنا اليوم من الموصل ،

---

(١) حديث أبي أمامة توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه

---

(١) التوبة : ٣٥

فإنه أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يقدح معه الادخار

الفن الثالث : فى مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، أو فى مجارى السيل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهي عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة . وإلى موهومة . فترك الموهوم منها من شرط التوكل ، وهي التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية ، فإن الكي والرقية قد يقدم به المحذور دفعا لما يتوقع . وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل مافى معناها من الأسباب . نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر فى الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الأسباب ، والتعويل عليها . فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة

ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى . فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ [1]) وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [2]) وقال عز وجل (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ [3]) وقال سبحانه وتعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [4]) وقال تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [5]) وهذا فى أذى الناس

وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء إذ لا فائدة فيه . ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين . وترتيب الأسباب ههنا كترتبها فى الكسب وجلب المنافع ، فلا نطول بالإعادة

وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند

---

(1) المزمل : ٩ ، ١٠ (2) ابراهيم : ١٢ (3) الأحزاب : ٤٨ (4) الأحقاف : ٣٥ (5) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩

الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله[1] « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » وقال تعالى (خُذُوا حِذْرَكُمْ [1]) وقال في كيفية صلاة الخوف (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ [2]) وقال سبحانه (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ [3]) وقال تعالى لموسى عليه السلام (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً [4]) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب[2] واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار احتفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعا . ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه

فإن قلت . فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ، فأقول وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ، فلا ينبغي أن يغرك ذلك المقام فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ، وليس ذلك شرطا في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها

فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويعض غيرك فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلي لم يستشل إلا بإشارتك ، وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع . وكلب دارك أولى بأن يكون مسخرا لك من كلب البوادي ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك . فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر

---

(١) حديث اعقلها وتوكل: الترمذي من حديث أنس قال يحي القطان منكر ورواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد قيدها

(٢) حديث اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند ارادة الهجرة

(١ ، ٢) النساء : ١٠٢ (٣) الانفال : ٦٠ (٤) الدخان : ٢٣

فإن قلت فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو ، وأغلق بابه حذرا من اللص ، وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأي اعتبار يكون متوكلا فأقول يكون متوكلا بالعلم والحال

فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه . فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب . فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا ، بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة ، فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله ، بل على كفاية الوكيل وقوته

وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك ، وأنا راض بحكمك ، فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها ، أو عارية ووديعة فتستردها ، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب . فإذا كان هذا حاله ، وذلك الذي ذكرناه علمه ، لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير ، وأخذ السلاح ، وإغلاق الباب . ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت، فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى . وإن لم يجده بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة ، فقد صح مقامه في التوكل ، وظهر له صدقه . وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر ، فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل ، لأن التوكل مقام بعد الزهد ؛ ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل! نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ، ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس . وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه ، وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه ، فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات ، وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ، ولا يتدلى بحبل غرورها ، فإنها خداعة، أمارة بالسوء، مدعية للخير

فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها ، وكوز يشرب منه ، وإناء يتوضأ منه ، وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه ، والجراب الذى فيه زاده ، وإنما ذلك في المأكول ، وفى كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع . والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل . ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل ، والركوة ، والمقراض ، والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين • فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذى هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهيه فلمَ أمسكه ، وأغلق الباب عليه ؟ وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه ، فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟ • فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه ، إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع . ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه . فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل ، وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ، ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ، ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر . فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله ، حسن الظن به . فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني . فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا . وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه إلىّ . وإن أخر عنه الغذاء بعد

ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه .
وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب
فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى ، وعرف أفعاله، وعرف سنته في إصلاح
عباده ، لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي
الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإني لا أدري أيهما خير لي . فكذلك ينبغي أن لا يبالي
المتوكل يسرق متاعه ، أو لا يسرق ، فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ،
فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ، وكم من غني يبتلى بواقعة لأجل
غناه يقول ياليتني كنت فقيرا

بيان

آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه

الأول : أن يغلق الباب ، ولا يستقصي في أسباب الحفظ . كالتماسه من الجيران الحفظ
مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة . فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ، ولكن يشده بشريط
ويقول . لولا الكلاب ماشددته أيضا

الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا يحرض عليه السراق ، فيكون هو سبب معصيتهم
أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم . ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة
قال خذها لا حاجة لي إليها . قال لم ؟ قال يوسوس إليّ العدوّ أن اللص أخذها . فكأنه
احترز من أن يعصى السارق ، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها . ولذلك قال
أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية . هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها !

الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي
الله فيه من تسليط سارق عليه ، ويقول . ما يأخذه السارق فهو منه في حل . أو هو في
سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة . وإن لم يشترط الفقر فهو أولى . فيكون
له نيتان لو أخذه غني أو فقير ، إحداهما: أن يكون ماله مانعا له من المعصية، فإنه ربما يستغنى
به فيتوانى عن السرقة بعده ، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل ،

والثانية: أن لا يظلم مسلما آخر، فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر . ومهما ينوى حراسة مال غيره بمال نفسه ، أو ينوى دفع المعصية عن السارق ، أو تخفيفها عليه ، فقد نصح للمسلمين، وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم [1] « انْصُرْ أخَاكَ ظَالِماً أوْ مَظْلُوماً » ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له . وليتحقق أن هذه النية لاتضره بوجه من الوجوه . إذ ليس فيها مايسلط السارق ويغير القضاء الأزلى ، ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم، لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا؛ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] فيمن ترك العزل فأقرّ النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع ، وعاش ، فقتل فى سبيل الله تعالى ، وإن لم يولد له لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع . فأما الخلق ، والحياة ، والرزق ، والبقاء فليس إليه . فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة

الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغى أن لايحزن ، بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى . ثم إن لم يكن قد جعله فى سبيل الله عز وجل فلا يبالغ فى طلبه ، وفى إساءة الظن بالمسلمين . وإن كان قد جعله فى سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة . فإن أعيد عليه فالأولى أن لايقبله بعد أن كان قد جعله فى سبيل الله عز وجل . وإن قبله فهو فى ملكه فى ظاهر العلم ، لأن الملك لايزول بمجرد تلك النية . ولكنه غير محبوب عند المتوكلين . وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال: فى سبيل الله تعالى . فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين ، فجاءه رجل فقال: ياأبا عبد الرحمن ، إن ناقتك فى مكان كذا . فلبس نعله وقام ، ثم قال أستغفر الله وجلس ، فقيل له ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال إنى كنت قلت فى سبيل الله

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته ، فقلت: مافعل الله بك؟ قال غفرلى وأدخلنى الجنة ، وعرض عليّ منازلى فيها فرأيتها . قال وهو مع ذلك كئيب حزين ، فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ، فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إنى

---

(١) حديث انصر أخاك ظالما أومظلوما: متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ـ الحديث : لم أجد له أصلا

لاأزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازلي في الجنة ، رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها ، فليست هذه له ، إنما هي لمن أمضى السبيل . فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ، ثم ترجع فيه . فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك

وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه ، فاتهمه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له . فحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه ، فجاء هو وأصحابه معه ، وردوا الذهب ، فأبى وقال : خذه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنا له ، وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء ، حتى لم يبق منه شيء . فهكذا كانت أخلاق السلف . وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه ؛ كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه ، فيعطيه فقيرا آخر . وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات

الخامس : وهو أقل الدرجات ، أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فإن فعل بطل توكله ، ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات ، وبطل زهده . ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به . ففي الخبر [1] « مَنْ دَعَا عَلَى ظَالِمِهِ فَقَدِ انْتَصَرَ »

وحكي أن الربيع بن خثيم سرق فرس له ، وكان قيمته عشرين ألفا ، وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ، ولم ينزعج لطلبه . فجاءه قوم يعزونه فقال . أما إني قد كنت رأيته وهو يحله . قيل وما منعك أن تزجره ؟ قال كنت فيما هو أحب إلي من ذلك ، يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه ، فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا ، فإني قد جعلتها صدقة عليه

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال ما أحب أن أكون عونا للشيطان عليه . قيل أرأيت لو رد عليك ؟ قال لا آخذه ولا أنظر إليه ، لأني كنت قد أحللته له

وقيل لآخر . ادع الله على ظالمك . فقال ما ظلمني أحد . ثم قال إنما ظلم نفسه . ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا ! . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف

---

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر : تقدم

فى ظلامه ، فقال لاتغرق فى شتمه ، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه ، كما ينتصف منه لمن أخذماله ودمه . وفى الخبر[1] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُظْلَمُ ٱلْمَظْلَمَةَ فَلاَ يَزَالُ يَشْتِمُ ظَالِمَهُ وَيَسُبُّهُ حَتَّى يَكُونَ بِمِقْدَارِ مَاظَلَمَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ مُطَالَبَةٌ بِمَازَادَ عَلَيْهِ يُقْتَصُّ لَهُ مِنَ ٱلْمَظْلُومِ »

السادس : أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما ، وجعل ذلك نقصا فى دنياه لا نقصا فى دينه . فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله ، فقال . إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين . وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال. أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة . وقيل لبعضهم . ادع على من ظلمك ، فقال . إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين

الفن الرابع :فى السعي فى إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله

اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء المسهل ، وسائر أبواب الطب ، أعنى معالجة البرودة بالحرارة ، والحرارة بالبرودة ، وهي الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالكيّ والرقية .

أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت

وأما الموهوم فشرط التوكل تركه ، إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكي ، ويليه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتماد عليها ، والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب . وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة ، كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ، ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس

---

(١) حديث ان العبد ليظلم المظلمة فلايزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة ـ الحديث : تقدم

محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص ، فهي على درجة بين الدرجتين . ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره به

أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَامِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إِلَّا السَّامُ » يعني الموت ؛ وقال عليه السلام [(٢)] « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ » [(٣)] وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ »

وفي الخبر المشهور [(٤)] « مَامَرَرْتُ بِمَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ » وفي الحديث أنه أمر بها وقال [(٥)] « احْتَجِمُوا لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ لَا يَتَبَيَّغْ بِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَكُمْ » فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت ، وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب ، وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع [(٦)] « مَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ

---

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام : أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله الا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه الى آخره واسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك الا الهرم والطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندها ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ماأنزل الله داء الا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء

(٢) حديث تداووا عباد الله : الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك

(٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزامة وقيل عن أبي خزامة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح .

(٤) حديث مامررت بملأ من الملائكة الا قالوا مر أمتك بالحجامة . الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف

(٥) حديث احتجموا لسبع عشرة وتسعة عشرة واحدى وعشرين ـ الحديث : البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ ان خير ماتحتجمون فيه سبع عشرة ـ الحديث : دون ذكر التبيغ وقال حسن غريب وقال البزار ان طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ـ الحديث :

(٦) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء سنة : الطبراني من حديث معقل

الثُّلاثَاء لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ كَانَ لَهُ دَوَاءٌ مِنْ دَاءِ سَنَةٍ »

وأما [١] أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية [٢] وقطع لسعد بن معاذ عرقا أى فصده. [٣] وكوى سعد بن زرارة [٤] وقال لعلي رضي الله تعالى عنه وكان رمِدَ العين « لاَ تَأْكُلْ مِنْ هَذَا » يعنى الرطب « وَكُلْ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ » يعني سلقا قد طبخ بدقيق شعير. [٥] وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تَأْكُلُ تَمْرًا وَأَنْتَ أَرْمَدُ » فقال إني آكل من الجانب الآخر: فتبسم صلى الله عليه وسلم

وأما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقد روي فى حديث [٦] من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ، ويحتجم كل شهر ، ويشرب الدواء كل سنة . قيل السنا المكى [٧] وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها . وروي أنه [٨] كان إذا نزل عليه الوحى

بن يسار وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس واسنادهما واحد اختلف على راويه فى الصحابى وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف

(١) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة : الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك انه قال للاعراب حين سألوه تداووا ـ الحديث : وسيأتى فى قصة على وصهيب فى الحمية بعده

(٢) حديث قطع عرقا لسعد بن معاذ : مسلم من حديث جابر قال رمي سعد فى أكحله فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص ـ الحديث :

(٣) حديث انه كوى أسعد بن زرارة : الطبرانى من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبى أسامة ابن سهل بن حنيف دون ذكر سهل

(٤) حديث قال لعلى وكان رمدا لا تأكل من هذا ـ الحديث : أبوداود والترمذى وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر

(٥) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وأنت رمد ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

(٦) حديث من طريق أهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة : ابن عدى من حديث عائشة وقال انه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحي بن معين

(٧) حديث انه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها . الطبرانى باسناد حسن من حديث جبلة بن الازرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس ـ الحديث : وله فى الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولابى يعلى والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله ابن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفى ضعفه الجمهور

(٨) حديث كان اذا نزل عليه الوحى صدعه رأسه فيغلفه بالحناء : البزار وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة وقد اختلف فى اسناده على الاحوص بن حكيم كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذى غريب

صدع رأسه ، فكان يغلفه بالحناء . وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد [1] جعل على قرحة خرجت به ترابا

وما روي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته ، فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت . فقال لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء . فطالت علته . فقالوا له . إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإنا نتداوى به فنبرأ . فقال لا أتداوى . وأقامت علته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ . فأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردتَ أن تبطل حكمتي بتوكلك عليّ ، من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟

وروي في خبر آخر ، أن نبيًا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكا نبيٌّ آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن ، فإن فيهما القوة . قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روي أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل ، فإنه يحسن الولد ، ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصوّر الله تعالى الولد . وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل ، والنفساء الرطب . فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب . فكما أن الخبز دواء الجوع ، والماء دواء العطش . فالسكنجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال ، لا يفارقه إلا في أحد أمرين

أحدهما : أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جليّ واضح ، يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص . فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول

---

(1) حديث جعل على قرحة خرجت بيده ترابا : البخاري ومسلم من حديث عائشة كان اذا اشتكى الانسان الشيء منه أوكانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان ابن عيينة الراوي سبابته بالارض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا تشفى سقيمنا

والثاني : أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن ، وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط ، فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض مايوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ، ولكنه نادر

واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين . وإلا فالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب . وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه ، بحكم حكمته وكمال قدرته . فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روي عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ممن الداء والدواء ؟ فقال تعالى مني . قال فما يصنع الأطباء ؟ قال يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي . فإذاً معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر ، الجالبة للنفع . فأما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيه

فإن قلت : فالكي أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك . إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، وسقي المبردات للمحرور ، وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه . وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد . وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب . فهذا من الأسباب الموهومة كالرقي ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه ، فإنه مامن وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق . فالإحراق بالنار جرح مخرب للبنية ، محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ، ولا يسد مسدهما غيرهما

ولذلك [1] نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى ، وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروي أن عمران بن الحصين اعتل ، فأشاروا عليه بالكي ، فامتنع . فلم يزالوا به ، وعزم عليه الأمير حتى اكتوى . فكان يقول . كنت أرى نورا ،

---

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى : البخاري من حديث ابن عباس وأنهى أمتي عن الكي وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة

وأسمع صوتا، وتسلم عليّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى. وكان يقول :اكتوينا كيات ، فو الله ماأفلحت ولا أنجحت . ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى ،فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة . وقال لمطرف بن عبد الله . ألم تر إلى الملائكة التى كان أكرمنى الله بها قد ردها الله تعالى عليّ بعد أن كان أخبره بفقدها

فإذاً الكي وما يجرى مجراه هو الذى لايليق بالمتوكل ، لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ،ثم هو مذموم .ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم

بيان

أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لاينحصرون . ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر . فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لايكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله . وقدروي عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قيل له . لو دعونا لك طبيبا ؟ فقال . الطبيب قد نظر إليّ وقال إنى فعال لما أريد

وقيل لأبى الدرداء فى مرضه . ماتشتكى ؟قال ذنوبى . قيل فما تشتهى ؟ قال مغفرة ربى قالوا . ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال الطبيب أمرضنى . وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه . لو داويتهما ؟ قال . إنى عنهما مشغول . فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يعافيك ؟ فقال :أسأله فيما هو أهم عليّ منهما . وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له . لو تداويت ؟ فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرسّ ، وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكان فيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوَى ، ولم تغن الرقى شيئا . وكان أحمد بن حنبل يقول . أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره . وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله . وقيل لسهل. متى يصح للعبد التوكل ؟ قال إذا دخل عليه الضرر فى جسمه ،والنقص فى ماله ، فلم يلتفت إليه شغلا بحاله ، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه

فإذاً منهم من ترك التداوى ورآه ، ومنهم من كرهه . ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى

فنقول . إن لترك التداوى أسبابا

السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين ،وقد كوشف بأنه انتهى أجله،وأن الدواء لا ينفعه . ويكون ذلك معلوما عنده تاره برؤيا صادقة ، وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق . ويشبه أن يكون ترك الصدّيق رضي الله عنه التداوى من هـذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعـائشة رضي الله عنها فى أمر الميراث . إنما هن أختاك ، وإنما كان لها أخت واحدة ،ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به

السبب الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله ، وبخوف عاقبته ، واطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض ؛ فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله . وعليه يدل كلام أبى ذر إذ قال . إنى عنهما مشغول ،وكلام أبى الدرداء إذ قال: إنما أشتكى ذنوبى . فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض . ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذى يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع ؟فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع . فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ، ولا طعنا فيمن أكل . ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ماالقوت ؟ فقال هو ذكر الحيّ القيوم . فقيل إنما سألناك عن القوام . فقال القوام هو العلم . قيل سألناك عن الغذاء . قال الغذاء هو الذكر. قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد ! دع من تولاه أولاً يتولاه آخرا ، إذا دخل عليه علة فرُدَّهُ إلى صانعه . أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعهـا حتى يصلحها

السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة ،والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع ، جار مجرى الـكي والرقية ، فيتركه المتوكل . وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء ، فهلك المداوَى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب ، وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا . ولا شك فى أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا

فى الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة .

وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم ، لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لاأصل له ، وذلك صحيح فى بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح فى البعض . ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا ، فيرى التداوى تعمقا فى الأسباب كالكي والرقى ، فيتركه توكلا

السبب الرابع : أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض ، لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر . فقد ورد فى ثواب المرض مايكثر ذكره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صَلْبَ الإِيمَانِ شُدِّدَ عَلَيْهِ الْبَلاَءُ وَإِنْ كَانَ فِى إِيمَانِهِ ضَعْفٌ خُفِّفَ عَنْهُ الْبَلاَءُ » وفى الخبر [2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُجَرِّبُ عَبْدَهُ بِالْبَلاَءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الإِبْرِيزِ لاَ يَزِيدُ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ أَسْوَدَ مُحْتَرِقًا »

وفى حديث [3] من طريق أهل البيت « إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ الضَّالَّةِ لاَ تَمْرَضُونَ وَلاَ تَسْقَمُونَ » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تجد المؤمن أصح شيء قلبا ، وأمرضه جسما . وتجد المنافق أصح شيء جسما ، وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض

---

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد ابن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه . الحديث : الطبرانى من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٣) حديث من طريق أهل البيت ان الله إذا أحب عبدا ابتلاه ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده فى مسنده وللطبرانى من حديث أبى عنبة إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لايترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف

(٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لاتمرضون ولاتسقمون : ابن أبي عاصم فى الآحاد والمثانى وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث ان الرجل ليكون له المنزلة عند الله ـ الحديث : وقد تقدم

والبلاء أحبّ قوم المرض واغتنموه ، لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ، ويقاسي العلة ، ويرضى بحكم الله تعالى ، ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه . وعلموا أن صلاتهم قعوداً مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى ، أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة . ففي الخبر [١] « إنَّ اللهَ تعَالَى يَقُولُ لِلمَلائِكَةِ اكْتُبُوا لِعَبْدِي صَالِحَ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فَإنَّهُ فِي وِثَاقِي إنْ أَطْلَقْتُهُ أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ وَإنْ تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إلَى رَحْمَتِي »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَفْضَلُ الأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ » فقيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [١]) . وكان سهل يقول : ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض ، أفضل من التداوي لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها . وكان يداوي الناس منها . وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ، ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات ، يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوة والصلاة قائما

وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف . ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات ، لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا وقال سهل رحمه الله : علل الأجسام رحمة ، وعلل القلوب عقوبة

---

(١) حديث ان الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في وثاق ـ الحديث : الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم

(٢) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس : تقدم ولم أجده مرفوعا

---

(١) البقرة : ٢١٦

السبب الخامس . أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها . عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا ، فيترك التداوي خوفا من أن يسرع زوال المرض . فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « لَا تَزَالُ الْحُمَّى وَالْمَلِيلَةُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ كَالْبَرَدَةِ مَا عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَا خَطِيئَةٌ » . وفي الخبر [٢] « حُمَّى يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ » فقيل لأنها تهد قوة سنة ، وقيل للإنسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها ، ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم [٣] . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما . فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله . وسأل ذلك طائفة من الأنصار ، فكانت الحمى لا تزايلهم

ولما قال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ أَذْهَبَ اللهُ كَرِيمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ » قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام . لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله ، لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه . وروي أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال . يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه ! أي به أكفر ذنوبه وأزيد في درجاته

---

(١) حديث لاتزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الارض كالبردة ماعليه خطيئة: أبو يعلى وابن عدي من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها وأسانيده ضعيفة

(٢) حديث حمى يوم كفارة سنة: القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليله بدل يوم

(٣) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموما ـ الحديث : وسأل ذلك طائفة من الانصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري باسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يارسول الله أرأيت هذه الامراض تصيبنا مالنا فيها قال كفارات قال أبي وان قلت قال فان شوكة فمافوقها قال فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث : وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب انه قال يارسول الله ماجزاء الحمى قال تجري الحسنات على صاحبها مااختلج عليه قدم أوضرب عليه عرق فقال اللهم اني أسألك حمى لاتمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك ـ الحديث : والاسناد مجهول قاله علي بن المديني

(٤) حديث من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة : تقدم المرفوع منه دون قوله فلقد كان في الانصار من يتمنى العمى

السبب السادس: أن يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفله ، والبطر ، والطغيان أو طول الأمل، والتسويف فى تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى ، وتتحرك الشهوات، وتدعو إلى المعاصى . وأقلها أن تدعو إلى التنعم فى المباحات، وهو تضييع للأوقات ، وإهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب . ولذلك قيل، لايخلو المؤمن من علة ، أو قلة ، أو زلة . وقد روي أن الله تعالى يقول . الفقر سجنى ، والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى ، فإذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأي خير يزيد عليه ! ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه ، فالعافية فى ترك المعاصى . فقد قال بعض العارفين لإنسان . كيف كنت بعدى ؟ قال فى عافية. قال إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت فى عافية ، وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية ! ماعوفى من عصى الله . وقال علي كرم الله وجهه ، لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد : ماهذا الذى أظهروه ؟ قالوا ياأمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لايعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى (مِن بَعْدِ مَاأَرَاكُم مَاتُحِبُّونَ [١]) قيل العوافى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [٢]) وكذلك إذا استغنى بالعافية.

وقال بعضهم إنما قال فرعون (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [٣]) لطول العافيـة ،لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ، ولم يحمّ له جسم ، ولم يضرب عليه عرق ،فادعى الربوبية ،لعنه الله، ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » وقيل . الحمى رائد الموت ، فهو مذكر له ، ودافع للتسويف . وقال تعالى (أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَيَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ [٤]) قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ويقال . إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت . ياغافل ، جاءك منى

---

(١) حديث أكثروا ذكر هاذم اللذات : الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) العلق : ٦ (٣) النازعات : ٢٤ (٤) التوبة : ١٢٦

رسول بعد رسول فلم تجب . وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال . وقالوا . لايخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروّع روعة ، أو يصاب ببلية ،حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة ، فلم تكن تمرض ،فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم [1] عرض عليه امرأة ، فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل ، وإنها مامرضت قط . فقال « لَاحَاجَةَ لِي فِيهَا »

• [2] وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع ، كالصداع وغيره ،فقال رجل وما الصداع ؟ ماأعرفه . فقال صلى الله عليه وسلم « إِلَيْكَ عَنِّي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » وهذا لأنه ورد فى الخبر [3] « الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ » . وفى حديث [4] أنس وعائشة رضي الله عنهما ، قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ مَرَّةً » وفى لفظ آخر « الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزِنُهُ » ولا شك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها ،إذ رأوا الأنفسهم مزيدا فيها،لامن حيث رأوا التداوي نقصانا . وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

بيان

الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل . إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره ،وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال : ينبغى أن يكون من شرط التوكل

---

(١) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرضت قط فقال لاحاجة لى فيها : أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد

(٢) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ماأعرفه فقال اليك عنى ـ الحديث : أبوداود من حديث عامر الرام أخى الخضر بنحوه وفى اسناده من لم يسم

(٣) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار : البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان

(٤) حديث أنس وعائشة قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت فى كل يوم عشرين مرة : لم أقف له على اسناد

ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم . فإن قيل: إن ذلك أيضا شرط ، فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن ، والعقرب تلدغ الظاهر ، فأي فرق بينهما . فإن قال . وذلك أيضا شرط التوكل ، فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ، ولدغ البرد بالجبة . وهذا لا قائل به . ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، وأجرى بها سنته .

ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ماروي عن عمر رضي الله عنه ، وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين . فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت فنكون ، كمن قال الله تعالى فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ [1] ﴾ فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه . أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال . أرأيتم لو كان لأحدكم غنم ، فهبط واديا له شعبتان إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ، وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر . الله أكبر : فقال عبد الرحمن (١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصحابة

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف اذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه ـ الحديث : وفي أوله قصة خروج عمر بالناس الى الجابية وانه بلغهم أن بالشام وباء ـ الحديث : رواه البخاري

---

(١) البقرة : ٢٤٣

كلهم على ترك التوكل ، وهو من أعلى المقامات ، إن كان أمثال هذا من شروط التوكل

فإن قلت: فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء، وسبب الوباء فى الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر ، فلم لم يرخص فيه ؟

اعلم أنه لا خلاف فى أن الفرار عن المضر غير منهي عنه ، إذ الحجامة والفصد فرار من المضر، وترك التوكل فى أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود . ولكن الذى ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى ، أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق له . فإنه إذا كان فيه عفونة ، ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق ، فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن . فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل . ولكن يتوهم الخلاص ، فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما . ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل، ولم يكن منهيا عنه . ولكن صار منهيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر ، وهو أنه لو رخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون ، فانكسرت قلوبهم ، وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام، وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم ، فيكون ذلك سعيا فى إهلاكهم تحقيقا . وخلاصهم منتظر، كما أن خلاص الأصحاء منتظر. فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ،ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص ، وهو قاطع فى إهلاك الباقين . والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا . والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه

فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهي . وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد ، فإنه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ، ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين ، وقدم عليهم قوم ، فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا [1] شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف لأن فيه

---

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف :رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد ومن حديث جابر بإسناد ضعيف وقد تقدم

كسراً لقلوب بقية المسلمين ، وسعياً فى إعلائهم . فهذه أمور دقيقة ، فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه . وغلطُ العبّاد والزهاد فى مثل هذا كثير . وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك

فإن قلت : ففى ترك التداوى فضل كما ذكرت ، فلِمَ لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل . فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى فى الأدوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى ، وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع . فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى . وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ، ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها ، إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها . فإنه لم يكن له نظر فى الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب . كما أن الرغبة فى المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالا فهى أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر . وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده . وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم ، لا لخوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها[1] . فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى ، وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم ، مع أنه لا ضرر فيه . بخلاف إدخال الأموال ، فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء ، وهذا قد

---

(١) حديث أنه عرضت عليه خزائن الارض فأبى أن يقبلها : تقدم ولفظه عرضت مفاتيح خزائن السماء وكنوز الارض فردها

نهى عنه . ومن حيث إنه يقصد به الصحه ليستعان بها على المعاصى ، وذلك منهي عنه .
والمؤمن فى غالب الأمر لايقصد ذلك . وأحد من المؤمنين لايرى الدواء نافعا بنفسه ، بل
من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع ، كما لايرى الماء مرويا ، ولا الخبز مشبعا . فحكم
التداوى فى مقصوده كحكم الكسب ،فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أوعلى المعصية
كان له حكمها . وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها
أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال،وأن التداوى قديكون أفضل فى بعض،
وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، والأشخاص، والنيات، وأن واحدا من الفعل والترك ليس
شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكى والرقى، فإن ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين

بيان

أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات ،
لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه و بين الله عز وجل، فكتمانه أسلم عن الآفات
ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة

الأول : أن يكون غرضه التداوى ، فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا فى معرض
الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن
المطبب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فيّ

الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكينا فى المعرفة
فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى
أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا
حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه ، لم يكن ذلك شكوى

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة
والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روي أنه قيل لعليّ فى مرضه رضي الله عنه . كيف أنت ؟
قال بشرّ . فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك ، وظنوا أنه شكاية فقال . أتجلّد
على الله . فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ماعلم به من القوة والضراوة، وتأدب فيه بأدب النبى

صلى الله عليه وسلم إياه، حيث[1] مرض علي كرم الله وجهه. فسمعه عليه السلام وهو يقول. اللهم صبرني على البلاء. فقال له صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ تَعَالَى الْبَلَاءَ فَسَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ »

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله تعالى حرام، كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة

ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى. فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم، ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه، لأنه ربما يوهم الشكاية، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة. ومن ترك التداوي توكلا فلا وجه في حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء. وقد قال بعضهم. من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1]) لا شكوى فيه. وقيل ليعقوب عليه السلام. ما الذي أذهب بصرك؟ قال مر الزمان وطول الأحزان. فأوحى الله تعالى إليه. تفرغت لشكواي إلى عبادي. فقال يارب أتوب إليك. وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا. يكتب على المريض أنينه في مرضه. وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه. فجعل الأنين حظه منه. وفي الخبر[2] « إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَكَيْنِ انْظُرَا مَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى بِخَيْرٍ دَعَوَا لَهُ وَإِنْ شَكَا وَذَكَرَ شَرًّا قَالَا كَذَلِكَ تَكُونُ »

وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية. وخوف الزيادة في الكلام. فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه، فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم. منهم فضيل، ووهيب، وبشر. وكان فضيل يقول أشتهي أن أمرض بلا عواد. وقال. لا أكره العلة إلا لأجل العواد. رضي الله عنه وعنهم أجمعين

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه. يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة، والشوق، والأنس، والرضا. والله سبحانه وتعالى الموفق

---

(١) حديث مرض علي فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء. فقال لقد سألت الله البلاء. فسل الله العافية: تقدم مع اختلاف

(٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده ـ الحديث: تقدم

---

(١) يوسف: ٨٣

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سُبُحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت فى بيداء كبريائه وعظمته. فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر فى وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى فى بحر معرفته ومحترقة بنار محبته. والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزمته، وسلم كثيرا

أما بعد: فإن المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها. وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها، حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس، والشوق، ولذة المناجاة. وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ونحن نذكر فى هذا الكتاب بيان شواهد الشرع فى المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب، ثم بيان السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول فى علامات محبة العبد لله تعالى،

ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ، ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لا تناقضه ، وكذا الفرار من المعاصى ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة . فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

بيان

شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض . وكيف يفرض مالا وجود له ، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [1]) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ [2]) وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال [1] أبو رزين العقيلى : يارسول الله ، ما الإيمان؟ قال « أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفى حديث آخر [2] « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفى حديث آخر [3] « لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفى رواية « وَمِنْ نَفْسِهِ » كيف وقد قال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ [3]) الآية . وإنما أجرى

﴿ كتاب المحبة والشوق والرضا ﴾

(١) حديث أبى رزين العقيلى انه قال يارسول الله ما الايمان قال أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة فى أوله

(٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما : متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى أكون أحب اليه من أهله وماله وذكره بزيادة

(٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفى رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخارى من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب الى من كل شىء الا نفسى فقال لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب الى من نفسى فقال الآن ياعمر

(١) المائدة : ٥٤ (٢) البقرة : ١٦٥ (٣) التوبة : ٢٤

ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال [١] « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ إِيَّايَ »

ويروى [٢] أن رجلا قال يارسول الله إني أحبك . فقال صلى الله عليه وسلم « اسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ » فقال إني أحب الله تعالى . فقال « اسْتَعِدَّ لِلْبَلَاءِ » . وعن [٣] عمر رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ »

وفي الخبر المشهور [٤] أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ! فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه . فقال ياملك الموت الآن فاقبض وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه [٥] « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ » . [٦] وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر

---

(١) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ـ الحديث : الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب

(٢) حديث ان رجلا قال يارسول الله انى أحبك فقال استعد للفقر ـ الحديث : الترمذي من حديث عبد الله ابن مغفل بلفظ فأعد للفقر تجفافا دون آخر ـ الحديث : وقال حسن غريب

(٣) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به الحديث : أبو نعيم في الحلية باسناد حسن

(٤) حديث ان ابراهيم قال لملك الموت اذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٥) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك ـ الحديث : تقدم

(٦) حديث قال أعرابي يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها. والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن، وقال أبو سليمان الداراني · إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه ؛ فكيف يشتغلون عنه بالدنيا

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر وقد نحلت أبدانهم ، وتغيرت ألوانهم، فقال لهم ما الذى بلغ بكم ما أرى ! فقالوا الخوف من النار. فقال حق على الله أن يؤمّن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذاهم أشد نحولا وتغيرا فقال . ما الذى بلغ بكم ما أرى ! قالوا الشوق إلى الجنة . فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذاهم أشد نحولا وتغيرا، كأن على وجوههم المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ! قالوا نحب الله عزوجل . فقال أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم فى الثلج ، فقلت أما تجد البرد؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد .وعن سرى السقطى قال :تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام، فيقال ياأمة موسى ، وياأمة عيسى ، وياأمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون ياأولياء الله ،هلموا إلى الله سبحانه ، فكاد قلوبهم تنخلع فرحا . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة

وقال يحيي بن معاذ :عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه !ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ! وحبه يدهش العقول فكيف وده ! ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه !

وفى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محبا

وقال يحيي بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب

وقال يحيي بن معاذ : إلهى أنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك صغيرا ، أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال سترا، وتوبة ، وزهدا ، وشوقا ، ورضا ، وحبا ، تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك ، ملازما لأمرك ،ومشغوفا بقولك ،ولما طر شاربى ولاح طائرى .فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا !فلى ما بقيت حولك دندنة،وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محب،وكل

محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار مالا يدخل في حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به

بيان

حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى

فأول ماينبغي أن يتحقق أنه لايتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا مايعرفه . ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، وإلى ماينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى مالا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل مافي إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة ولا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذاً كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه . ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا ، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوي سمي مقتا . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته

الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لامحالة بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات . وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها ، فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين في الإبصار ، وإدراك المبصرات الجميلة ، والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة . ولذة الشم في الروائح الطيبة . ولذة الذوق في الطعوم . ولذة اللمس في اللين والنعومة . ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها . حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « حُبِّبَ إليَّ مِنْ

---

(١) حديث حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء ـ الحديث: النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم

دُنْيَا كُمْ ثَلَاثٌ الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فسمي الطيب محبوبا ، ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمي النساء محبوبات ، ولاحظ فيهن إلا للبصر واللمس ، دون الشم ، والذوق ، والسمع . وسمي الصلاة قرة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب، لايدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ،فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال إن الله تعالى لايدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب ، فإذاً قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذى يعبر عنه إما بالعقل ، أو بالنور ، أو بالقلب ، أو بما شئت من العبارات ،فلامشاحة فيه وهيهات . فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر . والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى . ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافى إدراكه لذة،كما سيأتى تفصيله ، فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم ، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا

الأصل الثالث : أن الإنسان لايخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه . وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لالأجل نفسه ؟ هذا مما قديشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لايتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ، مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها

وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته . ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ،وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ، وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ! فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت والقتل ، لالمجرد مايخافه بعد الموت ، ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم ، وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به ، وكان كارها لذلك . ولا يحب الموت والعدم المحض

إلا لمقاساة ألم الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم ، بل لأن فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم ممقوت ، ودوام الوجود محبوب

وكما أن دوام الوجود محبوب . فكمال الوجود أيضا محبوب . لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود ، كما أنه ممقوت في أصل الذات . ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً [١]) فإذاً المحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله ، وولده ، وعشيرته ، وأصدقاؤه . فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . والمال محبوب ، لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله ، وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها ، بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى أنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ ، بل يتحمل المشاق لأجله ، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه ، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا . نعم لو خير بين قتله وقتل ولده ، وكان طبعه باقيا على اعتداله ، آثر بقاء نفسه على بقاء ولده . لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه ، وليس هو بقاءه المحقق . وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيرا بهم ، قويا بسببهم ، متجملا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذاً المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله . والمكروه عنده ضد ذلك . فهذا هو أول الأسباب

السبب الثاني . الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَداً فَيُحِبَّهُ قَلْبِي » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع

---

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيحبه قلبي : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ ابن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم

---

(١) الاحزاب : ٦٢

دفعه ، وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لاقرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول؛ فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة ، وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود . وكمال الوجود ، وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده ، وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له ، كالطبيب الذي يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها ، والطبيب محبوب لالذاته بل لأنه سبب للصحة . وكذلك العلم محبوب . والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته ، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب . وكذلك الطعام والشراب محبوب ، والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته ، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام

فإذاً يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا ، بل أحب إحسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب ، مع بقاء ذاته تحقيقا . ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته ، لالحظ ينال منه وراء ذاته ؛ بل تكون ذاته عين حظه . وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذى يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، محبوبة لذاتها لالغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لايتصور إلا لأجل قضاء الشهوة ، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ ، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته . وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب ، لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجارى[1] . والطباع السليمة قاضية

(١) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجارى: أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر الى الخضرة والى الماء الجارى واسناده ضعيف

باستلذاذ النظر إلى الأنوار ، والأزهار ، والأطيار المليحة الألوان ، الحسنة النقش ، المتناسبة الشكل ، حتى أن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها ، لا لطلب حظ وراء النظر .

فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع . فإن ثبت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »

الأصل الرابع فى بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس فى مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل ، وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة ، وامتداد القامة ، إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ماليس مبصرا ، ولا متخيلا ، ولا متشكلا ، ولا متلونا مقدر ، فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن فى إدراكه لذة ، فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر . فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإنا نقول هذا خط حسن ، وهذا صوت حسن ، وهذا فرس حسن . بل نقول هذا ثوب حسن ، وهذا إناء حسن . فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا فى الصورة ! ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شيء من المدركات ، إلا وهو منقسم إلى حسن ، وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه ، وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء ، وجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له

فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ماحضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل مايليق بالفرس من هيئة وشكل ، ولون ، وحسن عدْو ، وتيسر كرّ وفرّ عليه . والخط الحسن كل ماجمع مايليق بالخط

---

(١) حديث ان الله جميل يحب الجمال : مسلم فى أثناء حديث لابن مسعود

من تناسب الحروف ، وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت . ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء

فإن قلت : فهذه الأشياء ، وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات ، والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ، فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال المحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس

فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات . إذ يقال هذا خلق حسن، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم ، والعقل ، والعفة ، والشجاعة ، والتقوى ، والكرم ، والمروءة ، وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك ، أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم ، وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، مع أنهم لم يشاهدوا ، بل على حب أرباب المذاهب ، مثل الشافعي وأبي حنيفة ، ومالك ، وغيرهم ، حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه ، والذبّ عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعري من يحب الشافعي مثلا فلمَ يحبه ولم يشاهد قط صورته ، ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين ، وانتهاضه لإفادة علم الشرع ، ولنشره هذه الخيرات في العالم

وهذه أمور جميلة ، لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها ، وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب عليا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى

والشجاعة والكرم وغيره ، فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلا ، ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله ، إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقي ما كان الصدّيق به صديقا ، وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة ، فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات ، مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة ، إذا علم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها ، بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله . فإذاً الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا ، فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة ، والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى أن الصبي المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة ، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ، ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وبغض أبي جهل ، وبغض ابليس لعنه الله ، إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس ، بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ، ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان ، وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ، ونأي الديار ، فإذاً ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال

صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب إذرب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أوحظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم[1] « فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه، لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب، فإذاً ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه، وحبه من كان محسنا فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه، وحبه لكل ما هو جميل فى ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة ، حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى الخلق، ومحسن إلى الوالد، كان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها ، فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات ، فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى

بيان

أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى ، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود ، لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التى ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ، ولا يوجد فى غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة فى حق الله تعالى ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ، وهو

---

(١) حديث فماتعارف منها ائتلف: مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى آداب الصحبة

مجاز محض ، لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ماتخيله ضعفاء العقول والقلوب ، من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، وبان أن التحقيق يقتضى أن لاتحب أحدا غير الله تعالى . فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاؤه وكماله ، ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه ، وعدمه ، ونقصانه ، وقواطع كماله ، فهذه جبلة كل حي ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لاوجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ، ودوام وجوده،وكمال وجوده من الله ، وإلى الله، وبالله ، فهو المخترع الموجد له ، وهو المبقى له ، وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ،وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لاوجود له من ذاته ، بل هو محو محض ، وعدم صرف ، لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده ، لولا فضل الله عليه بالإبقاء . وهو ناقص بعد الوجود ، لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته

وبالجملة فليس فى الوجود شيء له بنفسه قوام ، إلا القيوم الحي الذى هو قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم به ، فإن أحب العارف ذاته ، ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده ، والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ، ومخترعا مبقيا ، وقيوما بنفسه ، ومقوما لغيره ، فإن كان لايحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة، فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها ، وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى :من عرف ربه؛أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه ، الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس ، لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل مافى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة إلى الشجر ، والنور بالاضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته ، ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ، ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام ، إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس ، وفائض منها ، وموجود بها ، وهو خطأ محض ، إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار ، أن النور حاصل من قدرة الله تعالى ، اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس

والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم ، فلا يطلب فيها الحقائق ، فإذاً إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا ، فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا ، فى أصله وصفاته ، وظاهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه أيضا ضروري أن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هذا الحب ، فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به ، والاتساع فيه دون عالم الملكوت ، الذى لا يطأ أرضه ، إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن إليه ، فواساه بماله ولاطفه بكلامه ، وأمده بمعونته ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وقام بدفع شر الأشرار عنه ، وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه ، وأولاده وأقاربه ، فإنه محبوب لا محالة عنده ، وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى ، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها ، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [1]) وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى ، ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ، ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه ، وخلق ماله ، وخلق قدرته ، وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الإحسان إليك ، ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى ، وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره ، وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل . وأما يده

---

(1) النحل : ١٨

فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن ، لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له فى البذل ، إما آجل وهو الثواب ، وإما عاجل وهو المنّة والاستسخار ، أو الثناء والصيت ، والاشتهار بالسخاء والكرم ، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقى ماله فى البحر ، إذ لا غرض له فيه ، فلا يلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصودا ، بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب ، بسبب قبضك المال ، فقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه . فهو إذاً محسن إلى نفسه ، ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين

أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه ، فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير ، فإنه لا يُرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة ، والامتثال لما يرسمه ، ولا يقدر على مخالفته . ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله ، حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك

والثانى : أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب ، اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا ، بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان فى الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه ، فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ، ولأجلهم ، لا لحظ وغرض يرجع إليه ، فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع

الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والإحسان، والطول والامتنان، فإن كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذ الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك، فإنك تجد فى قلبك تفرقة بينهما، إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأول، وهو الحب ونفرة عن الثانى، وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول، وآمن من شر الثانى، لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم، وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هي من ضروراتهم، وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هي فى مظان حاجاتهم وإن لم تكن فى مظان الضرورة، ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هي فى مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء الرأس، والقلب، والكبد ومثال المحتاج إليه العين، واليد، والرجل، ومثال الزينة استقواس الحاجبين، وحمرة الشفتين، وتلوز العينين، إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء، واللحم، والفواكه، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذاً هو المحسن، فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته! فإنه خالق الحسن، وخالق المحسن، وخالق الإحسان، وخالق أسباب الإحسان. فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال : فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس ، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثانى يختص بإدراكه أرباب القلوب ، ولا يشاركهم فيه من لايعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال . فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء ، والعلماء ، وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء ، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة ، والحس لايدركه . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الصديق رضي الله تعالى عنه ، أو الشافعي رحمة الله عليه ، فلا يحبهم إلا لحسن ماظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ، ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هي مصدر الأفعال ، إذ الأفعال آثار صادرة عنها ، ودالة عليها . فمن رأى حسن تصنيف المصنف ، وحسن شعر الشاعر ، بل حسن نقش النقاش ، وبناء البناء ، انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة . ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة ، كان العلم أشرف وأجمل . وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة ، كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك مايقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به

فإذاً جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور

أحدها : علمهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وشرائع أنبيائه

والثانى : قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة

والثالث : تنزههم عن الرذائل ، والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء ، والعلماء ، والخلفاء ، والملوك الذين هم أهل العدل والكرم . فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى

أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [1]) بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه ، كما قال تعالى (خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [2]) فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا ، وكان هو فى نفسه زينة وكمالا الموصوف به ، فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه . بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه ، استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم ، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما ، تتقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله و بين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية ، يتصور فى الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها ، ومعلومات الخلق متناهية

وأما صفة القدرة فهى أيضا كمال ، والعجز نقص ، فكل كمال ، و بهاء ، وعظمة ، ومجد ، واستيلاء ، فإنه محبوب ، وإدراكه لذيذ ، حتى أن الإنسان ليسمع فى الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما ، وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران ، فيصادف فى قلبه اهتزازا ، وفرحا ، وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حبا فى القلب ضروريا المتصف به ، فإنه نوع كمال . فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا ، وأقواهم بطشا ، وأقهرهم للشهوات ، وأقمعهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، ما منتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض أشخاص الإنس فى بعض الأمور . وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، ولا ضرا ، ولا نفعا

---

(1) الاسراء : ٨٥ (2) الرحمن : ٣ ، ٤

بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض . ولا يحتاج إلى عدّ مايعجز عنه فى نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات ، وأفلاكها ، وكواكبها ، والأرض وجبالها ، وبحارها ، ورياحها ، وصواعقها ، ومعادنها ، ونباتها ، وحيواناتها ، وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته ، وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه ، كما قال فى أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال (إنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ [1]) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه فى جزء من الأرض ، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته ، وسياسته ، وتمكينه ، واستيلائه ، وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو الجبار القاهر ، والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه ، والأرض وملكها وما عليها فى قبضته ، وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ، ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته ، فله الجمال والبهاء ، والعظمة والكبرياء ، والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ، والتقدس عن الرذائل والخبائث ، فهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة . والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ، ذى الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا ، مخلوقا ، مسخرا ، مضطرا ، هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده

---

(١) الكهف : ٨٤

وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره ، قائما بغيره ، وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا نطول بذكره

فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا ، فلا تتم حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون فى درجات النقصان . فإذاً الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لا ضد له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغني الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذى لا أول لوجوده ، الأبدي الذى لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال ، والقدرة والكمال ، الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، وتخرس فى وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين[1] « لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته

فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ، أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ، ونعوت الكمال والمحاسن ، أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها ؟ أو ينكر كون الكمال والجمال ، والبهاء والعظمة ، محبوبا بالطبع عند من أدركه ؟

---

(١) حديث لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : تقدم

فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان ، لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . إن أود الأوداء إليّ من عبدنى بغير نوال . لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور : مَن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار ، لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ! ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة ، فقال لهم . مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبّا له وتعظيما لجلاله ، فقال . أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم .

وقال أبو حازم . إنى لأستحى أن أعبده للثواب والعقاب ، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفى الخبر [1] « لاَ يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ وَلاَ كَالْعَبْدِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ »

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لأن شبه الشيء منجذب إليه ، والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي ، والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه ، وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة ، وتشهد له الأخبار والآثار ، كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه

وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر ، كمناسبة الصبي الصبي فى معنى الصبا . وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه ، كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ، أو طمع فى مال أو غيره ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين .

---

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل : لم أجد له أصلا

وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال . بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يسطر . بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك . فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها الاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ،حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هي من صفات الإلهية، من العلم ،والبر،والإحسان،واللطف،وإفاضة الخير،والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ،إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لا بمعنى طلب القرب بالمكان ، بل الصفات

وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمي ، فهي التى يومئ إليها قوله تعالى (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى [1]) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [2]) ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ [3]) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة. وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة [2] بقوله تعالى لموسى عليه السلام : مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده : وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى [3] « لاَ يَزَالُ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِى يَنْطِقُ بِهِ »

وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه ، فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى

---

(١) حديث ان الله خلق آدم على صورته: تقدم

(٢) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدنى فقال وكيف ذلك قال مرض فلان ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه ـ الحديث البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الحجر : ٣٠ (٣) ص : ٢٦

التشبيه الظاهر ، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد ، وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله . وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت . وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل ، واستحالة الاتحاد والحلول، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر، فهم الأقلون ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذ غلبه الوجد فى قول القائل

لازلت أنزل من ودادك منزلا   تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها ، وأبعدها، وأقلها وجودا

فهذه هي المعلومة من أسباب الحب . وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا . وفى أعلى الدرجات لا فى أدناها. فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط ، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط . ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته أياه فى السبب ، والشركة نقصان فى الحب ، وغض من كماله ، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى ، فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ، ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلاجرم لا يكون فى حبه شركة ، فلا يتطرق النقصان إلى حبه ، كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته ، فهو المستحق إذ الأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

بيان

أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم
وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له ، فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام ، فلاجرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى

طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها . وكذلك لذة السمع ، والبصر ، والشم ، في الابصار ، والاستماع ، والشم . فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز ، عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي ، لقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [1]) وقد تسمى العقل ، وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامى . فإن الاصطلاحات مختلفة ؛ والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعانى ، لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ ، وهو عكس الواجب

فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن ، بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كإدراكه خلق العالم ، أو افتقاره إلى خالق قديم ؛ مدبر حكيم ، موصوف بصفات إلٰهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا ؛ بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغى أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ، فمقتضى طبعها المعرفة ، والعلم وهي لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها . وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة ، حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شيء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شيء حقير يغتم به . وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقيرة ، فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم ، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ، وهى منتهى الكمال

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذ به .

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ، وملكوت السموات

(1) الزمر : ٢٢

والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى أن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة ، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ؟ وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد ، وحبه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم :

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان فى المعلومات ماهو الأجل والأكمل ، والأشرف ، والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لامحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شي أجل ، وأعلى ، وأشرف وأكمل ، وأعظم ، من خالق الأشياء كلها ومكملها ، ومزينها ، ومبدئها ، ومعيدها ، ومدبرها ، ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك ، والكمال ، والجمال ، والبهاء ، والجلال ، أعظم من الحضرة الربانية التى لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟

فإن كنت لاتشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية ، والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات ، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات ، وألذها ، وأطيبها ، وأشهاها ، وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر مايعظم به الفرح ، والارتياح ، والاستبشار

وبهذا تبين أن العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين . فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، أعنى لذة الشهوة والغضب ، ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة ، وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال . وإنما تعرف أقوى اللذات

بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها، وبين استنشاق روائح طيبة ، إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة . وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل ، واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات ، فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلذة الرياسة، والغلبة، والكرامة والعلم ، وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ، ولا للأنف ، ولا للأذن ، ولا للمس ، ولا للذوق . والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ، ميت القلب ، شديد النهمة ، اختار اللحم والحلاوة ،وإن كان عليّ الهمّة ، كامل العقل ، اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة . نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه ، لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة . وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته ، فلذة معرفة الله تعالى ، ومطالعة جمال حضرة الربوبية ، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وإنه أعد لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل ، والتفرد ، والفكر ، والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته، وفناء من عليه رياسته ،وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها،وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ، ومطالعة صفاته وأفعاله

ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لاتضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع في رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة . ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ، ومحلها الروح الذى هو أمر رباني سماوى ، وإنما الموت يغير أحوالها ، ويقطع شواغلها وعوائقها ، ويخليها من حبسها ، فأما أن يعدمها فلا . (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ [1]) الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة ، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر [1] أن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم مايراه من ثواب الشهادة ، وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء

فإذاً جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله . ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم

فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة ، أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لاتكون لبهيمة ، ولا لصبي ، ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة

فأما معنى كون معرفة الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملكوت سمواته ؛ وأسرار ملكه

---

(١) حديث ان الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة الى الدنيا ليقتل مرة أخرى ـ الحديث :متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء ـ الحديث

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

أعظم لذة من الرياسة ، فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له ، لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لايمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة . ولكن من سلم من آفة العنة ، وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لايبقى إلا أن يقال من ذاق عرف

ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ، فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم ، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه ، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح مايكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لايدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء ، وأنه لالذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ! ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني ياأبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟فسكت. فقال ذكر الموت؟فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ؟فقال وأي شيء القبر؟فقال خوف النار ورجاء الجنة؟فقال وأي شيء هذا؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا

وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى ، فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : مافعل أبو نصر التمار ، وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت ؟ قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب ، فأعطاني النظر إليه

وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة . فرأيت رجلا قاعدا على مائدة ، وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل . ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس ، فيدخل بعضا ويرد بعضا . قال : ثم جاوزتهما

إلى حظيرة القدس ، فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لايطرف . فقلت لرضوان : من هذا ؟ فقال معروف الكرخي ، عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبًّا له ، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ماحقيقة إيمانك ؟ قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبًّا له وشوقا إليه . وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهلا لذا كا

فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سوا كا

وأما الذى أنت أهـل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراك

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولـكن لك الحمد فى ذا وذا كا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما . ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التى عبر عنها[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَالاَعَيْنٌ رَأَتْ وَلاَأُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَخَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية . ولذلك قال بعضهم : إنى أقول يارب ياألله ، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ! وقال : إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة . أي يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون مايقوله جنونا أو كفرا

فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرة العين التى لاتعلم نفس ماأخفى لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها ، وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه ، وبلوغه الغاية

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة .

التي ليس فوقها غاية . وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى ، وماله صورة ولا شكل ، وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده ، وذكره أنه أعظم النعم ! بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قاله بعضهم

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من نار ... ووصله أطيب من جنة

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح . فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط

ومثال أطوار الخلق في لذاتهم ما نذكره ، وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء . ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذة اللعب . ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذة اللعب . ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء ، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها . ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر ، وهي آخر لذات الدنيا ، وأعلاها ، وأقواها ، كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ[1]) الآية ، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، فيستحقر معها جميع ما قبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز ، وحب النساء والزينة في سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العلية . وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى ، والعارفون يقولون : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

(1) الحديد : ٢٠

بيان

السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى مايدخل فى الخيال ، كالصور المتخيلة ، والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى مالايدخل فى الخيال ، كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم ، كالعلم ، والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنسانا ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها . ولكن إذا فتح العين وأبصر وأدرك تفرقة بينهما ولاترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين ، لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤيه أتم انكشافا ووضوحا . وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ، ثم رؤى عند تمام الضوء ، فإنه لاتفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا فى مزيد الانكشاف

فإذاً الخيال أول الإدراك ، والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال ، وهو غاية الكشف وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف ، لالأنه فى العين . بل لوخلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية

وإذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لاتتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح مابين المتخيل والمرئي ، فيسمى الثانى أيضا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ، ولقاء ، ورؤية . وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ، ويكون حجابا بين البصر والمرئى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ومالم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لاتنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال . بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول فى سبب كونها حجابا يطول ، ولا يليق بهذا

العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام (لَنْ تَرَانِى [١]) وقال تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [٢]) أى فى الدنيا . والصحيح [١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج

فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة . فمنهـا ماتراكم عليه الخبث والصدأ ، فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها مالم ينته إلى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة ، [٢] وأقصاها فى حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلّت ولذلك قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [٣]) فكل نفس مستيقنة للورود على النار، وغير مستيقنة للصدور عنها. فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله، ووقع الفراغ عن جملة ماوعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره، ووافى استحقاق الجنة، وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه، فإنه واقع بعد القيامة، ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات، حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة ، لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ماعلمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ماتخيله. وهذه المشاهدة والتجلى هي التى تسمى رؤية

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين انها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب * ولمسلم من حديث أبى ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نورانى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء الى اثبات رؤيته له وعائشة لم تروذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وحديث أبى ذر قال فيه أحمد مازلت له منكرا وقال ابن خزيمة فى القلب من صحة اسناده شىء مع ان فى رواية لاحمد فى حديث أبى ذر رأيته نورا انى أراه ورجال اسنادها رجال الصحيح

(٢) حديث ان أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة :الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث أبى هريرة انا الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى ـ الحديث : وفيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت وذلك سبعة آلاف سنة واسناده ضعيف

---

(١) الأعراف : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٠٣ (٣) مريم : ٧١ ، ٧٢

فإذاً الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصوَّر مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوُّر وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخرة كذلك . بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هي التى تستكمل ، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة ، فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة ، لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا فى زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [1]) إذ تمام النور لا يؤثر إلا فى زيادة الكشف ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة ، والحب زرعا . ومن لا نواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ! ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ! فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة !

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة . فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر . إذ تختلف لا محالة بكثرتها ، وقلتها ، وحسنها ، وقوتها ، وضعفها . ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام [1] « إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً » فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره . ولما فضل الناس بسر

---

(١) حديث ان الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصه : ابن عدى من حديث جابر وقال باطل بهذا الاسناد وفى الميزان للذهبى ان الدارقطنى رواه عن المحاملى عن على بن عبدة وقال الدارقطنى ان على بن عبدة كان يضع - الحديث : ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة

---

(١) الحديد : ٢٢

وقر فى صدره ، فضل لا محالة بتجل انفرد به . وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة ، وعلى المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب جميعا، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ماوصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار فبينت أنه ليس فى قلبها إلتفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة

وكل من لا يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة . وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ماعاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فإن ذلك منتهى لذته . وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها مايشتهى ، فمن لايشتهى إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره ، بل ربما يتأذى به

فإذاً نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان

فإن قلت ، فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة، فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها

فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة . فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ، وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ، فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا

إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع . وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب

أحدها : كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة فى النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة

والثانى : كمال قوة الحب ، والشهوة ، والعشق ، فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه

والثالث : كمال الإدراك ، فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة ، أو من وراء ستر رقيق ، أو من بعد ، كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر ، وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد

والرابع : اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ، فليس التذاذ الصحيح ، الفارغ ، المتجرد للنظر إلى المعشوق ، كالتذاذ الخائف المذعور ، أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات . فقدِّر عاشقا ضعيف العشق ، ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد ، بحيث يمنع انكشاف كنه صورته ، فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجاءة حالة انهتك بها الستر ، وأشرق بها الضوء ، واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا ، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها

فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع ، والعطش ، والغضب ، والغم ، والحزن ، وضعف الشهوة . والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى ، والتفاتها إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة ، والتفاته إلى اللعب بالعصفور

والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات . ولا يتصور أن

يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة مايبهت العقل ، وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته . ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم . بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر مايشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية ، فلاتزال هذه اللذة منغصة إلى الموت . وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما العيش عيش الآخرة (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [١]) . وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة ، فإن المعرفة كالبذر ، وبحر المعرفة لاساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال . فكلما كثرت المعرفة بالله ، وبصفاته وأفعاله ، وبأسرار مملكته وقويت ، كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن . ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب . ويستدعى ذلك زمانا لامحالة

فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة ، بالغا إلى منتهى مايسر له . ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ، ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر . فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة ، وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ، إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة

---

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله : ابراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادى عن المطلب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف فى صحبته ولأحمد من حديث جابر ان من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الانابة والترمذى من حديث أبى بكرة ان رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم

---

[١] العنكبوت : ٦٤

فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق، فإنه المحبة المفرطة القوية. ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان

فإن قلت: فهذه الرؤية محلها القلب أو العين فى الآخرة؟

فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك. وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو فى جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له. والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا فى حكم الجواز. فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين[1] ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم

بيان

الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر، ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب. فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة. وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة. وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا، فذلك ينفك عنه الأكثرون. وإنما يحصل ذلك بسببين

(١) حديث رؤية الله فى الآخرة حقيقة: متفق عليه من حديث أبى هريرة ان الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ـ الحديث؛

أحدهما ، قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذى لا يتسع للخل مثلا مالم يخرج منه الماء (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ [1])

وكمال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر مايشغل بغير الله ينقص منه حب الله . و بقدر مايبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ [2]) وبقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا [3]) بل هو معنى قولك لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود فإن العبد هو المقيد ، والمعبود هو المقيد به ، وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ [4]) وقال صلى الله عليه وسلم « أَبْغَضُ إِلَٰهٍ عُبِدَ فِي الْأَرْضِ الْهَوَى » ولذلك قال عليه السلام [1] « مَنْ قَالَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ، ومعبود قلبه ، ومقصود قلبه فقط

ومن هذا حاله فالدنيا سجنه ، لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه . وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب . فما حال من ليس له إلا محبوب واحد ، وقد طال إليه شوقه ، وتمادى عنه حبسه ، فخلى من السجن ، ومكن من المحبوب ، وروح بالأمن أبد الآباد ؟

فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ، ومنه حب الأهل ، والمال ، والولد ، والأقارب ، والعقار ، والدواب ، والبساتين ، والمنتزهات ، حتى أن المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ، ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه . فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأة إلا ويضيق به قلب ضرتها . فالدنيا والآخرة ضرتان ، وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا

---

(١) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة : تقدم

(١) الاحزاب : ٤ (٢) الأنعام : ٩١ (٣) الاحقاف : ١٣ (٤) الفرقان : ٤٣

أوضح من الإبصار بالعين . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء ، فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر ، والزهد ، والخوف ، والرجاء ، هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة ، وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا ، وفي المال والجاه ، وكل حظوظ الدنيا ، حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركني المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : (١) « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ » كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة

السبب الثاني : لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها ، واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [1]) وإليها الإشارة بقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [2]) أي المعرفة (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [3]) فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم ، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ، ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة . وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل . فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة ، وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ، ويتزين بعلم المعرفة ، وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم ، والجد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى

---

(١) حديث الطهور شطر الايمان : مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

(١) ابراهيم : ٢٤ (٢ ، ٣) فاطر : ١٠

وفى صفاته ، وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ، ويكون أول معرفتهم لله تعالى، ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضعفاء ، ويكون أول معرفتهم بالأفعال ، ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[1]) وبقوله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[2]) ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال: عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى. وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[3]) الآية وبقوله عزوجل (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[4]) وبقوله تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[5]) وبقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ[6]) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرءان عند الأمر بالتدبر ، والتفكر ، والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل ، فأوضح لنا منهما مايستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة ، فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق ، فلا فائدة فى إيراده فى الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر ، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا إتساعه وكثرته ، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ مامن ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ، ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي[7]) فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم

(١ ، ٤) فصلت : ٥٣ . (٢) آل عمران : ١٨ (٣) الأعراف : ١٨٥ (٥) يونس : ١٠١ (٦) الملك : ٣ ، ٤
(٧) الكهف : ١٠٩

المكاشفة . ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول .

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال ، فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى . ثم الأفعال الإلهية كثيرة ، فلنطلب أقلها . وأحقرها ، وأصغرها ، ولننظر فى عجائبها . فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ، أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم فى الشخص ، فالشمس على ماترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذى هي مركوزة فيه ، فإنه لا نسبة لها إليه ، وهي فى السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « الأَرْضُ فِى الْبَحْرِ كَالْإِسْطَبْلِ فِى الْأَرْضِ » ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة إلى كل الأرض

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجرى مجراه ، فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره ، وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطوما مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة ، فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ودبر فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغاذية ، والجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ، والهاضمة ، ماركب فى سائر الحيوانات . هذا فى شكله وصفاته . ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ،

---

(١) حديث الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض : لم أجد له أصلا

وعرّفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وكيف هداه إلى مسامّ بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ، ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ؛ وكيف علمه المص والتجرع للدم ، وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى إلى باطنه ، وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته ، وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يعود ، ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه ، وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب يدين ؛ فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه ، وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين ، وتعين على الإبصار ، وتحسن صورة العين ، وتشبكها عند هيجان الغبار ، فينظر من وراء شباك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان ، وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج ، لأن بصرها ضعيف ، فهي تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم ، وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ، ويرمى بنفسه إليه ، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد ، فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق .

ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها . بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ، ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ، ويتقيد بها ، ويهلك هلاكا مؤبدا

فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش ، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال، والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة . ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول [1] « إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ فِيهَا تَهَافُتَ الْفَرَاشِ »

فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب مالو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ، ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته . فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره . فانظر إلى النحل وعجائبها ، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء، وجعل الآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا ، وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك ، وفارغا من هم بطنك وفرجك، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك، وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبني بيتا مستديرا ، ولا مربعا ، ولا مخمسا ، بل مسدسا ، لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس

---

(١) حديث اني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش : متفق عليه من حديث أبي هريرة مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي

وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه، ولطافة قده ، لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع لطفه وامتنانه

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه . بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى

فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم ، فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

بيان

السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم ، فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون

وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [1]) الآية . فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول .

أصحاب الشافعي مثلا يشتركون فى حب الشافعي رحمه الله ، الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ، ودينه ، وحسن سيرته ، ومحامد خصاله . ولكن العامى

(١) الواقعة : ٨٨ ، ٨٩

يعرف عامه مجملا ، والفقيه يعرفه مفصلا . فتكون معرفة الفقيه به أتم ، وإعجابه به وحبه له أشد . فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله ، أحبه لامحالة ، ومال إليه قلبه . فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب ، تضاعف لامحالة حبه ، لأنه تضاعفت معرفته بعلمه . وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد بهمعرفة ،وازداد لهحبا . وكذاسائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف ، وأنه حسن التصنيف ، ولكن لايدرى مافى التصنيف ، فيكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل . والبصير إذا فتش عن التصانيف ، واطلع على مافيها من العجائب ،تضاعف حبهلامحالة ، لأنعجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف . والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامى يعلم ذلك ويعتقده . وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه مايبنهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه ،فيزداد له حبا. وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا ، استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا

وبحر هذه المعرفة ، أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لاساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه ، منعما عليه ، ولم يحبه لذاته ، ضعفت محبته . إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ، ولأنهمستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنهلايتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة ، والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ، ولذلك قال تعالى (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [1])

(١) الاسراء : ٢١

بيان

السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى . وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا ، كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته للخياطة ، أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته ، وغضبه ، وخلقه ، وصحته ، ومرضه ، وكل ذلك لا نعرفه . وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته . وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وكونه حيوانا ، فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما فى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلي واضح

ووجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه ، وسائر صفاته ، يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ، ومدر ، ونبات ، وشجر ، وحيوان ، وسماء ، وأرض ، وكوكب ، وبر ، وبحر ، ونار ، وهواء ، وجوهر ، وعرض ؛ بل أول شاهد عليه أنفسنا ، وأجسامنا ، وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا . وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة . وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد ، وشاهد واحد ، ودليل واحد . وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ، ومدبرها ، ومصرفها ، ومحركها ، ودالة على علمه ، وقدرته ، ولطفه ، وحكمته . والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا ، وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسسنا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور فى الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها

إلا وهو شاهد عليه ، وعلى عظمته وجلاله ، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ، ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا ، وائتلاف عظامنا ، ولحومنا ، وأعصابنا ، ومنابت شعورنا ، وتشكل أطرافنا ، وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق فى الوجود شيء مدرك ، ومحسوس ، ومعقول ، وحاضر ، وغائب ، إلا وهو شاهد ومعرف ، عظم ظهوره ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه ، فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما: خفاؤه فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله .

والآخر: ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهر نوره الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره

فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره . واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها ، لكنا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرها ؛ فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد ، وفى الأبيض إلا البياض . فأما الضوء فلا ندركه وحده . ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع ، أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع

عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات

فما هو ظاهر فى نفسه وهو يظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده . فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ، ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب فى قصور الأفهام

وأما من قويت بصيرته ، ولم تضعف منته ، فإنه فى حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر فى شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء ، وأرض ، وحيوان ، وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق ، فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر فى شعر إنسان ، أو خطه أو تصنيفه ، ورأى فيها الشاعر والمصنف ، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر ، وعفص ، وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف

وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله ، وأحبه من حيث إنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا فى الله ، ولا عارفا إلا بالله ، ولا محبا إلا له وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه ، بل من حيث أنه عبد الله . فهذا الذى يقال فيه إنه فنى فى التوحيد وإنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كُنَّا بِنَا ، ففنينا عنا ، فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها ، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم

فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها

التى هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس . ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا ، انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه ، وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لايحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ، ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء ، والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان ، دفعة واحدة على سبيل الفجأة ، لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة ، والسباحة فى بحارها الواسعة ، فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة ، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ، ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ‏ إلا على أكمه لايعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ‏ فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان

معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب . ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر ، وبطريق الأخبار والآثار

أما الاعتبار فيكفى فى إثباته ماسبق فى إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه فى غيبته لامحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه . فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر ، والموجود لايطلب . ولكن بيانه أن الشوق لايتصور إلا إلى شىء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما مالايدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لايتصور أن يشتاق إليه . وما أدرك بكماله لايشتاق إليه . وكمال الإدراك بالرؤية ،

فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق . ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات ، فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه ، وبقي فى قلبه خياله ، فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قلبه ذكره ، وخياله ، ومعرفته حتى نسيه ، لم يتصور أن يشتاق إليه . ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية . فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته ، فيشتاق إلى استكمال رؤيته . وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الضوء عليه

والثانى : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه ، فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ، ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ، ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ، ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية ، فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط

والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلٰهية وإن كان فى غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح ، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفتر فى هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات . وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ، ولا يكون ذلك إلا فى الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق ، فإنه منتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعي الشوق ، وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا مّا

الثانى : أن الأمور الإلٰهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ، وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التى لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ، ولقاء ، ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات

يوم يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك ، فقد أضر بي القلق . قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال : ياإبراهيم ، أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائي ! وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ! فقلت يارب تهت في حبك فلم أدر ماأقول فاغفرلي وعلمني ماأقول فقال . قل اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك، فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة

وأما الشوق الثاني : فيشبه أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى ، وصفاته ، وحكمته ، وأفعاله ، ماهو معلوم لله تعالى ، وهو محال ، لأن ذلك لا نهاية له ، ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال مالم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم . ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد ، وتكون لذة مايتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى مالم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا . فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ، ولكن يكون مستمرا على الدوام : وقوله سبحانه وتعالى (نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [1]) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور . ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير مااستنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا [2]) يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة إشراقا . فأما أن يتجدد نور فلا . والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد مايوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا، ويرينا الحق حقا، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى . فما اشتهر من دعاء رسول الله

(1) التحريم : ٨ (2) الحديد : ١٣

صلى الله عليه وسلم [1] أنه كان يقول « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاء، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ »

وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية ، يعنى فى التوراة . فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا . قال ومكتوب إلى جانبها ، من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى. فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا

وفى أخبار داود عليه السلام ، أن الله تعالى قال : ياداود ، أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى ، وجليس لمن جالسنى، ومؤنس لمن أنس بذكرى ،وصاحب لمن صاحبنى،ومختار لمن اختارنى، ومطيع لمن أطاعنى. ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى ، وأحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا ياأهل الأرض ماأنتم عليه من غرورها ،وهلموا إلى كرامتى ،ومصاحبتى ،ومجالستى وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نجيى ، ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ونعمتها بجلالى

وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين . إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ،ويذكرونى وأذكرهم ،وينظرون إلي وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام وفرشت الفرش، ونصبت الأسرة ،وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إلي أقدامهم ، وافترشوا إلي وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلي بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى مايتحملون من أجلى ، وبسمعى مايشتكون من حبى . أول ماأعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما

---

(١) حديث انه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ـ الحديث : أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ماأريد أن أعطيه !

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ، ياداود ، إلى كم تذكر الجنة ولاتسألنى الشوق إلي ! قال يارب من المشتاقون إليك ؟ قال إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى ، فإذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ، ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إليَّ ، وأباهى بكم أهل الشوق إليَّ ، فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ياداود ، إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ، ونعمتها بنور وجهى ، فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلي يزدادون فى كل يوم شوقا . قال داود: يارب أرنى أهل محبتك . فقال ياداود ، ائت جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفسا ، فيهم شبان ، وفيهم شيوخ ، وفيهم كهول فإذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام ، وقل لهم : إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ فإنكم أحبائى ، وأصفيائى ، وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عزوجل . فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه . فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم . فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض . فقال داود. إنى رسول الله إليكم ، يقرئكم السلام ،ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم ، فإنكم أحبائى ، وأصفيائى ، وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم ، وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . قال فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم . سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فاغفر لنا ماقطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا

وقال الآخر: سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك. نحن عبيدك وبنو عبيدك ،

أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لاحاجة لنا فى شيء من أمورنا ، فأدم لنا لزوم الطريق إليك ،وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر: نحن مقصرون فى طلب رضاك،فأعنا علينا بجودك

وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ، ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك ، أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك،متفكر فى جلالك ، وطلبتنا الدنو من نورك

وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ، وفرغتنا للاشتغال بك ،فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك

وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك

وقال الآخر : كيف يجترىء العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك ، فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات

وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا ، وتديمه عندنا . وقال الآخر . نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا ، وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لاحاجة لنا فى شيء من خلقك ، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك

وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا واهلها ، وقلبى عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر :قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم : قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ماأحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، وليتخذ لنفسه سربا ، فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال دواود : يارب بم نالوا هذامنك؟ قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها ، والخلوات بى ، ومناجاتهم لى ، وإن هذا منزل لاينا له إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشتغل بشيء من ذكرها ، وفرغ قلبه لى ، واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه ، وأفرغ نفسه ، وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلىّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء ، وأريه كرامتى فى كل ساعة ، وأقربه من نور وجهى . إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته ، وأذيقه طعم ذكرى

فإذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ، ولم أحببها إليه، لا يفتر عن الاشتغال بي ، يستعجلني القدوم ، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي ، لا يرى غيري ولا أرى غيره . فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ، ونحل جسمه، وتهشمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع بذكري ، أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي ، يزداد خوفا وعبادة، وعزتي وجلالي ياداود لأقعدنه في الفردوس ، ولأشفين صدره من النظر إليّ ، حتى يرضى وفوق الرضا

وفي أخبار داود أيضا : قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ، ماضركم إذا احتجبت عن خلقي ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم؟ وماضركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم ؟ وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي ؟

وفي أخبار داود أيضا ، أن الله تعالى أوحى إليه : تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب ياداود خالص حبيبي مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة . ودينك فقلدنيه ، ولا تقلد دينك الرجال . أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه ، حقا عليّ أني أسارع إلى سياستك وتقويمك ، وأكون قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني ، وأعينك على الشدائد . وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته القاء كنفه بين يدي، وأنه لا غنى به عني . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك ، وأسكن الغنى قلبك ، فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إليّ ، لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصبحك ، ولا تجد لمعرفتي حدا ، فليس لها غاية . ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ، ولا تجد للزيادة مني حدا . ثم أعلم بني اسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ضعني بين عينيك ، وانظر إليّ ببصر قلبك ، ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني ، فامرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها . فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف . تواضع لمن تعلمه ، ولا تطاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود ، لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك

عندي جهيدا ، ومن كتبته عندي جهيدا لاتكون عليه وحشة ولافاقة إلى المخلوقين . ياداود، تمسك بكلامي ، وخذ من نفسك لنفسك ، لاتؤتين منها فأحجب عنك محبتي ، لاتؤيس عبادي من رحمتي أقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي . مابال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي . وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول ، أدنى مايصل إليهم أن أحجب عقولهم عني ، فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها ، ياداود، لاتجعل بيني وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين . استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة في الإفطار ، فإن محبتي للصوم إدمانه . ياداود ، تحبب إلي بمعاداة نفسك ، امنعها الشهوات أنظر إليك ، وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به ، وإني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي . وأوحى الله تعالى إلى داود. ياداود ، لويعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا إلي ، وتقطعت أوصالهم من محبتي . ياداود، هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي ! ياداود أحوج مايكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأرحم ماأكون بعبدي إذا أدبر عني ، وأجل مايكون عندي إذا رجع إلي . فهذه الأخبار ونظائرها مما لايحصى تدل على إثبات المحبة والشوق ، والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

بيان

محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرءان متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده ، فلابد من معرفة معنى ذلك . ولنقدم الشواهد على محبته . فقد قال الله تعالى(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [١])وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [٢]) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [٣])ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الصف : ٤ (٣) البقرة : ٢٢٢

بِذُنُوبِكُمْ[١]) . وقد روى[١] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » ثم تلا (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[٢]) ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضى بعد الإسلام

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ[٣]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] « مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ » وقال عليه السلام[٤] « قَالَ اللهُ تَعَالَى لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ » الحديث

وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك

وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر ، وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر . فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ،

---

(١) حديث أنس اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابن مسعود وتقدم فى التوبة

(٢) حديث ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ـ الحديث : الحاكم وصحح اسناده والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود

(٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله : ابن ماجه من حديث أبى سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر الى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة

(٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم

---

(١) المائدة : ١٨ (٢) البقرة : ٢٢٢ (٣) آل عمران : ٣١

بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى أن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم ،نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ،إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه . وهذا التباعد فى سائر الأسامى أظهر ، كالعلم ، والإرادة ،والقدرة وغيرها ،فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق .وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامى أولا للخلق ، فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة ، والتجوز ، والنقل . والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ،وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فاتها مايوافقها ، فتستفيد بنيله كمالا ، فتلتذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال ، وجمال ، وبهاء ،وجلال ممكن فى حق الإلهية ، فهو حاضر وحاصل ، وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولا يتصور تجدده ولا زواله ،فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره ، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله . ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى ، لما قرئ عليه قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[1]) فقال : بحق يحبهم ، فإنه ليس يحب إلا نفسه ،على معنى أنه الكل وأن ليس فى الوجود غيره . فمن لا يحب إلا نفسه ، وأفعال نفسه ، وتصانيف نفسه ، فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته . فهو إذاً لا يحب إلا نفسه . وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياه من القرب منه ، وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب . وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث

---
(١) المائدة : ٥٤

بحدوث السبب المقتضى له ، كما قال تعالى : لايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله فى درجة القرب من ربه . فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به، فهو معنى حبه

ولا يفهم هذا إلا بمثال ، وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه، ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه ، لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته ، أو ليستريح بمشاهدته ، أو ليستشيره فى رأيه ، أو ليهيىء أسباب طعامه وشرابه . فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه، لا للانتفاع به، ولا للاستنجاد به، ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك ؛ وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا . فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه ، يقال قد أحبه . وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب ، يقال قد توصل وحبب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التى هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا ، إذ صار قريبا بعد أن لم يكن ، وهو محال فى حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزال

ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا ، فيتحرك الآخر ، فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر . بل القرب فى الصفات أيضا كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كمال العلم وجماله ، والأستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا فى التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير . فكذلك ينبغى أن

يفهم ترقى العبد فى درجات القرب ، فكلما صار أكمل صفة ، وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات ،وأظهر نزاهة عن الرذائل، صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله ، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ ، وعلى مساواته ، وعلى مجاوزته ، وذلك فى حق الله محال ، فإنه لانهاية لكماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ، ولا ينتهى إلا إلى حد محـــــدود ، فلا مطمع له فى المساواة

ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لانهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال

فإذاً محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه ، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه ، فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى مافاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس ، فبم يعرف العبد أنه حبيب الله

فأقول: يستدل عليه بعلاماته .وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ٱبْتَلَاهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ ٱلْحُبَّ ٱلْبَالِغَ ٱقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلاَ مَالاً »فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ، ويحول بينه وبين غيره ، قيل لعيسى عليه السلام . لم لاتشترى حمارا فتركبه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر [٢] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ٱبْتَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ ٱجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ ٱصْطَفَاهُ »وقال بعض العلماء . إذا رأيتك تحبه ، ورأيته يبتليك ، فاعلم أنه يريد يصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه . قد طولعت بشيء من المحبة . فقال يابني ، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟ قال لا . قال فلا تطمع فى المحبة ، فإنه لايعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظاً مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِراً مِنْ قَلْبِهِ

---

(١) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم

(٢) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث على ابن أبى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده

(٣) حديث اذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة باسناد حسن بلفظ اذا أراد الله بعبد خيرا

يأمره وينهاه » وقد قال (١) « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ » فأخص علاماته حبه لله ، فإن ذلك يدل على حب الله

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا ، فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه ، سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل همومه هما واحدا ، والمبغض للدنيا في قلبه ، والموحش له من غيره ، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فإنها أيضا علامات حب الله للعبد

القول

في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد . وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، مالم يمتحنها بالعلامات ، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب ، واللسان ، والجوارح ، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ، ودلالة الثمار على الأشجار ، وهي كثيرة

فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام . فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لاوصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت ، فينبغي أن يكون محبا للموت غير فار منه ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ » وقال حذيفة عند الموت . حبيب جاء على فاقة لاأفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه : أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه باسناد ضعيف

(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة

أحب إلى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود . فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا[1]) وقال عز وجل (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ[2]) وفى وصية أبى بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل ، وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف ، وهو مع خفته وبىء ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . ويروى عن[1] اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد . ألا ندعو الله ؟ فخلوا فى ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال . يارب إنى أقسمت عليك إذا لقيت العدوّ غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه ، شديدا حرده ، أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع أنفى ، وأذنى ، ويبقر بطنى ، فإذا لقيتك غدا قلت ياعبد الله من جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول فيك يارب وفى رسولك ، فتقول صدقت . قال سعد . فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط ، قال سعد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبرّ أوله

وقد كان الثوري وبشر الحافى يقولان . لايكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء حبيبه . وقال البويطى لبعض الزهاد . أتحب الموت ؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته ، وتلا قوله تعالى (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[3]) فقال الرجل . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[2] « لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ » فقال : إنما قاله لضر نزل به ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه

---

(١) حديث اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب انى أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ويجدع أنفى وأذنى ـ الحديث : الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية واسناده جيد

(٢) حديث لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(١) الصف : ٤ (٢) التوبة : ١١١ (٣) البقرة : ٩٤

فإن قلت : فمن لايحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محبا لله ؟

فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا ، والتأسف على فراق الأهل،والمال،والولد وهذا ينافى كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب . ولكن لايبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون فى الحب ، ويدل على التفاوت ماروي أن [1] أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه ، عاتبته قريش فى ذلك وقالوا . أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ! فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ » فهذا يدل على أن من الناس من لايحب الله بكل قلبه ، فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها

وأما السبب الثانى للكراهة فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة ، وليس يكره الموت ، وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لايدل على ضعف الحب ، وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره، ويعدّ له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق . فالكراهة بهذا السبب لاتنافى كمال الحب أصلا . وعلامته الدؤب فى العمل ، واستغراق الهم فى الاستعداد

ومنها أن يكون مؤثرا ماأحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه ، فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ، ومتقربا إليه بالنوافل ، وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه . وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً

---

(١) حديث أبى حذيفة بن عتبة انه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم: لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفى رواية له ان سالما شديد الحب لله عزوجل لو لم يخف الله عزوجل ماعصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[١]) ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه . كما قيل .

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغيرالمحبوب، كما روي أن زليخالما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام ، انفردت عنه وتخلت للعبادة ،وانقطعت إلىالله تعالى،فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار ، وقالت يايوسف ، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه ، وما أريد به بدلا . حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك ، وأخبرني أنه مخرج منك ولدين ، وجاعلهما نبيين ، فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك ، وجعلني طريقا إليه ، فطاعة لأمر الله تعالى . فعندها سكنت إليه

فإذاً من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا

وأترك ماأهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى . علامة الحب إيثاره على نفسك ، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى . وهو كما قال ،لأن محبته الله تعالى سبب محبة الله له، كما قال تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[٢]) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته ، فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته . ولذلك قال تعالى (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا[٣])

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟

فأقول: إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها . فكم من إنسان يحب نفسه ، وهو مريض ويحب الصحة ، ويأكل مايضره ، مع العلم بأنه يضره ، وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه .

(١) الحشر : ٨ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) النساء ٤٥

ولكن المعرفة قد تضعف ، والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل عليه ما روي [1] أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها، إلى أن أتى به يوما فحده. فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم «لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ» فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة . نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب، وقد قال بعض العارفين. إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ ، وترك المعاصى وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل . إذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا كفرت ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء . ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره ، وذكر ما يتعلق به ، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرءان الذى هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب كل من ينسب إليه . فإن من يحب إنسانا يحب كلب محلته ، فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة فى الحب ، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره ؛ بل هو دليل على كمال حبه . ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله ، لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرءان ، والرسول ، وعباد الله الصالحين ! وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الأخوة والصحبة ، ولذلك قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [1]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِلَّهِ تَعَالَى» وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله. ومن أكرم من يكرم الله تعالى

---

(١) حديث أتى بنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله : البخاري وقد تقدم

(٢) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ـ الحديث : تقدم

---

(1) آل عمران ٣١ :

فإنما يكرم الله تعالى . وحكي عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الإرادة ، فأدمنت قراءة القرءان ليلا ونهارا ، ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة . قال فسمعت قائلا يقول فى المنام : إن كنت تزعم أنك تحبنى فلمَ جفوت كتابى ؟ أما تدبرت مافيه من لطيف عتابى ! قال فانتبهت وقد أشرب فى قلبي محبة القرءان، فعاودت إلى حالى

وقال ابن مسعود : لاينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرءان . فإن كان يحب القرءان فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرءان فليس يحب الله .

وقال سهل رحمة الله تعالى عليه: علامة حب الله حب القرءان، وعلامة حب الله وحب القرءان حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدء الليل ، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق . وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته. فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله ، كيف تصح محبته ! قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وفى أخبار داود عليه السلام : لاتستأنس إلى أحد من خلقى ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين. رجلا استبطأ ثوابى فانقطع ، ورجلا نسيني فرضي بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه ، وأن أدعه فى الدنيا حيران

ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ، ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ ، وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ، أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام . إن برخا نعم العبد هو لى ، إلا أن فيه عيبا . قال يارب وماعيبه ؟ قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ، ومن أحبنى لم يسكن الى شيء

وروي أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا، فنظر إلى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى إليها ، ويصفر عندها ، فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة ، فكنت آنس

بصوت هـذا الطائر . قال ففعل . فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان : قل لفلان العابد ، استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لاتنالها بشيء من عملك أبدا

فإذاً علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة به ، وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه . وقد انتهت هـذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به . ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لايفهم أمور الدنيا مالم تكرر على سمعه مرارا ، مثل العاشق الولهان ، فإنه يكلم الناس بلسانه ، وأنسه في الباطن بذكر حبيبه

فالمحب من لايطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[1]) قال هشت إليه ، واستأنست به

وقال الصديق رضي الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر : المحب لايسأم من حديث حبيبه

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيي بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ، يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق

ومنها أن لايتأسف على مايفوته مما سوى الله عز وجل ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب ، والتوبة . قال بعض العارفين . إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه ، فذهب عنهم التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما ، وماشاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم

(١) الرعد : ٢٨

وحق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه ، ويشتغل بالعتاب ، ويسأله ويقول . رب بأي ذنب قطعت برك عنى ، وأبعدتنى عن حضرتك ، وشغلتنى بنفسى ومتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب ، يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه

ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ، ولم ير شيئا إلا منه ، لم يتأسف ولم يَشْكُ ، واستقبل الكل بالرضا ، وعلم أن المحبوب لم يقدّر له إلا مافيه خيرته ، ويذكر قوله (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [1])

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها ، كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم : العمل على المحبة لايدخله الفتور . وقال بعض العلماء . والله ماشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل

فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات ، فإن العاشق لايستثقل السعي فى هوى معشوقه ، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة ، وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به . فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لامحالة ماهو دونه . فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته . وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه . وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء . ما كان سبب حالك هذه فى المحبة ؟ فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول ، أنا والله أحبك بقلبى كله ، وأنت معرض عنى بوجهك كله . فقال له المحبوب : إن كنت تحبنى فإيش تنفق عليّ ؟ قال ياسيدى أملكك ماأملك ، ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك . فقلت هذا خلق لخلق ، وعبد لعبد ، فكيف بعبد لمعبود ! فكل هذا بسببه

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله ، رحيما بهم ، شديدا على جميع أعداء الله ، وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه ، كما قال الله تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [2])

---

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) الفتح : ٢٩

ولا تأخذه لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أولياءه إذ قال : الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ، ويأوون إلى ذكرى كما يأوي النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد ، فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال ، فإن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا . وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ، ومهما فارقه بكى ، ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ، ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه

فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه ، فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه . ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين ، كما قال تعالى في الأبرار (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [1]) ثم قال (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [2]) فإنما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [3]) ثم قال (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [4]) فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون . وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ، ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم في الآخرة (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [5]) (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ [6]) وكما قال تعالى (جَزَاءً وِفَاقًا [7]) أي وافق الجزاء أعمالهم . فقوبل الخالص بالصرف من الشراب ، وقوبل المشوب بالمشوب ، وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [8]) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [9]) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [10]) (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

---

(1) الانفطار : ١٣ (2) المطففين : ٢٥ - ٢٨ (3) المطففين : ١٨ (4) المطففين : ٢١ (5) لقمان : ٢٨
(6) الأنبياء : ١٠٤ (7) النبأ : ٢٦ (8) الزلزلة : ٧ ، ٨ (9) الرعد : ١١ (10) النساء : ٤٠

وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ[١]) فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور ، مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء ، فيلعب مع الولدان ، ويتمتع بالنسوان ، فهناك تنتهى لذته فى الآخرة ، لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ، ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . فالأبرار يرتعون فى البساتين . ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان ، والمقربون ملازمون للحضرة ، عاكفون بطرفهم عليها ، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِى الْأَلْبَابِ » . ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين ، عظم أمره فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ[٢]) كما قال تعالى (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ[٣])

ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم . وقد يظن أن الخوف يضاد الحب ، وليس كذلك . بل إدراك العظمة يوجب الهيبة ، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب . ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم . وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى[٢] شيب سيد المحبين ، إذ سمع قوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ[٤]) (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[٥])

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها ، وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب : البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى ولعله أدرج فيه

(٢) حديث شيبتنى هود أخرجه : الترمذى وقد تقدم غير مرة

---

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) المطففين ١٩ (٣) القارعة : ١ ، ٢ ، ٣ (٤ ، ٥) هود : ٦٨ ، ٩٥

(١)«مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ» وكذلك قال عليه السلام (٢)«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً» وإنما كان استغفاره من القدم الأول ، فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثانى . ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق ، والالتفات إلى غير المحبوب ، كما روي أن الله تعالى يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى ، أن أسلبه لذيذ مناجاتى . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى ، والعجب ، والركون إلى ما ظهر من مبادىء اللطف ، وذلك هو المكر الخفى الذى لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة

ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته ، سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفو ... رسوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فا ... ت فهب ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه ، فلم يفق يوما وليلة ، وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل : يا إبراهيم كن عبدا ، فكنت عبدا واسترحت

ثم خوف السلو عنه ، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث ، فلا يفتر عن طلب المزيد ، ولا يتسلى إلا بلطف جديد . فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته ، والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر ، كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو ، فيقف مع الرجاء ، ويغتر بحسن النظر ، أو بغلبة الغفلة ، أو الهوى ، أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم ، والعقل ، والذكر ، والبيان وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى

---

(١) حديث من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون : لا أعلم هذا الا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد

(٢) حديث انه ليغان على قلبي: متفق عليه من حديث الاغر وقد تقدم

هيجان الحب ، وهى أوصاف اللطف والرحمة ، والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو ، كأوصاف الجبرية، والعزة، والاستغناء، وذلك من مقدمات المكر، والشقاء، والحرمان

ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت والتسلو عنه مقدمة هذا المقام ، والإعراض والحجاب مقدمة السلو ، وضيق الصدر بالبر ، وانقباضه عن دوام الذكر ، وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها ، وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت نعوذ بالله منه . وملازمة الخوف لهذه الأمور ، وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئا خاف لامحالة فقده ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ، ومكنه ، وعلمه . فالمحب لايخلو عن خوف ، والخائف لايخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ، ولم يكن له من الخوف إلا يسير ، يقال هو فى مقام المحبة . ويعدّ من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب ، واستولت المعرفة ، لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روي فى بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحار عقله ، ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لاينتفع بشيء ، ولا ينتفع به شيء . فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب أنقصه من الذرة بعضها . فأوحى الله تعالى إليه . إنما أعطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ماأصابه من ذلك . فقال سبحانك ياأحكم الحاكمين ، أنقصه مما أعطيته . فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقي معه عشر معشاره ، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف .

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد فى الأوقات تجرى له فى كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين ، وإن كان ذلك لايجوز إظهاره ، وهي هذه الأبيات

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به مايصونه وأبذل منه ماأرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ماأرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له . بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا . فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا . بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش . بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ، ولوقفت الألسنة والأقدام عن كثير مما تنتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له فى الخير أسرارا وحكما . ولا منتهى لحكمته ؛ كما لا غاية لقدرته

ومنها . كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له ، وهيبة منه ، وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، ولأنه قد يدخل فى الدعوى مايتجاوز حد المعنى ويزيد عليه : فيكون ذلك من الافتراء

وتعظم العقوبة عليه في العقبى ، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله . فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه ، فلا يطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع ... بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى

فمالى منه غير ذكر بخاطر ... يهيج نار الحب والشوق في صدرى

والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبدى الدمع أسراره ... ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ... ومن سره في جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد من يكثر التعريض به في كل شيء ، ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة ، فرآه مبتلى ببلاء ، فقال لا يحبه من وجد ألم ضره . فقال الرجل . لكني أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره . فقال ذو النون : ولكني أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه . فقال الرجل . أستغفر الله وأتوب إليه ، فإن قلت . المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير ، فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة ، وظهورها محمود أيضا . وإنما المذموم التظاهر بها ، لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار . وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله ، دون أقواله وأفعاله . وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط . فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب ، وقادح فيه ، كما ورد في الإنجيل . إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك ، فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك ، لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم ، إلا إذا غلب

سكر الحب فانطلق اللسان ، واضطربت الأعضاء ، فلا يلام فيه صاحبه . حكي أن رجلا رأى من بعض المجانين ، مااستجهله فيه ، فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله ، فتبسم ثم قال . ياأخي ! له محبون صغار وكبار ، وعقلاء ومجانين ، فهذا الذى رأيته من مجانينهم

ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا ، وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم ، وشوقهم اللازم ، الذي به يسبحون الليل والنهار لايفترون ، ولا يعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه ، وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته ، وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين . عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح ، على بذل المجهود واستفراغ الطاقة ، حتى ظننت أن لى عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها ، فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ماخلق الله من شيء ، فقلت من أنتم ؟ فقالوا نحن المحبون لله عز وجل ، نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ، ماخطر على قلوبنا قط سواه ، ولا ذكرنا غيره . قال فاستحييت من أعمالى ، فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم

فإذاً من عرف نفسه ، وعرف ربه ، واستحيا منه حق الحياء ، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته ، وسكناته ، وإقدامه ، وإحجامه ، وترددانه ، كما حكي عن الجنيد أنه قال . مرض أستاذنا السرى رحمه الله ، فلم نعرف لعلته دواء ، ولا عرفنا لها سببا . فوُصِفَ لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه ، فنظر إليها الطبيب ، وجعل ينظر إليه مليا ، ثم قال لى . أراه بول عاشق . قال الجنيد . فصعقت وغشي علي ، ووقعت القارورة من يدى . ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم ثم قال . قاتله الله ماأبصره ! قلت ياأستاذ ، وتبين المحبة فى البول ؟ قال نعم . وقد قال السرى مرة . لو شئت أقول ماأيبس جلدى على عظمى ، ولا نسل جسمى إلا حبه . ثم غشي عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته

ومنها الأنس والرضا كما سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله

لإحسانه إليه ، وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين . ولذلك قال الجنيد : الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص . فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا أن أرضوه ، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ، فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة ، وأسماءه الحسنى ، لم يمتنعوا أن أحبوه ، إذ استحق عندهم المحبة بذلك ، لأنه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم . نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله إبليس ، وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ، فيظن أنه محب لله عز وجل ، وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ، ورياء ، وسمعة ، وغرضه عاجل حظ الدنيا ، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء ، وقراء السوء ، أولئك بغضاء الله فى أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يادوست ، أى ياحبيب ، فقيل له : قد لا يكون حبيبا ، فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا . لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا . فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس

وقد قال أبو تراب النخشبي فى علامات المحبة أبياتا :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره فى كل ماهو فاعل
فالمنع منه عطيـــة مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا من كل ماهو قائل

وقال يحي بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا ... فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... بجوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان

معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس ، والخوف ، والشوق ، من آثار المحبة . إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال ، انبعث القلب إلى الطلب ، وانزعج له ، وهاج إليه وتسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب

وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه ، فيسمى استبشاره أنسا

وإن كان نظره إلى صفات العز ، والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد ، تألم القلب بهذا الاستشعار ، فيسمى تألمه خوفا

وهذه الأحوال تابعة : لهذه الملاحظات . والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها . فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى أنه إذا غاب ، وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه ، وما يتطرق إليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته . ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا . إنما الشوق إلى غائب . فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله ، غير ملتفت إلى ما بقي فى الإمكان من مزايا الألطاف

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، كما حكي أن ابراهيم

ابن أدهم نزل من الجبل ، فقيل له : من اين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله . بل كل مايعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه ، مكث دهرا لايسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج من القلب عذوبة ماسواه ، ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه : يامن آنسني بذكره ، وأوحشني من خلقه. وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لي مشتاقا ، وبي مستأنسا ومن سواي مستوحشا . وقيل لرابعة . بم نلت هذه المنزلة؟ قالت بتركي مالا يعنيني ، وأنسي بمن لم يزل

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له . ياراهب . لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال ياهذا ، لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . الوحدة رأس العبادة فقلت ياراهب : ماأقل ماتجده في الوحدة ؟ قال الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرهم . قلت ياراهب : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة . قلت ومتى يصفو الود ؟ قال إذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة

وقال بعض الحكماء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ! عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك !

فإن قلت . فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، واستهتاره بعذوبة الذكر . فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا مااستوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهده

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ، ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل ، أنكر على الجنيد ، وعلى

أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس إلا الصبر ، فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر ، لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور ، فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ، ووراءه اللب المطلوب . فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة ، وهو معذور ولكن عذره غير مقبول . وقد قيل .

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

بيان

معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب ، فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة . ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقم في ذلك المقام ، ويتشبه بهم في الفعل والكلام ، هلك به وأشرف على الكفر

ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم ، سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ ، فقل له يخرج حتى أستجيب له . فسأل عنه موسى عليه السلام ، فلم يعرف . فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق ، إذا بعبد أسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من أثر السجود ، في شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل ، فسلم عليه وقال له ما اسمك ؟ فقال اسمي برخ . قال فأنت طلبتنا منذ حين ، اخرج فاستسق لنا . فخرج فقال في كلامه . ما هذا من فعالك ، ولا هذا من حلمك ، وما الذي بدا لك ؟ أنقصت عليك عيونك ! أم عاندت الرياح عن طاعتك ! أم نفد ما عندك ! أم اشتد غضبك على المذنبين

ألست كنت غفارا ! قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة ، وأمرت بالعطف ، أم ترينا أنك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب : قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفني . فهم موسى عليه السلام به . فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة ، فبقي في وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك ، فبعث إلى صاحب الخص . قال فأتى بشيخ فقال ياشيخ ، مابال خصك لم يحترق ؟ قال إني أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقه . فقال أبو موسى رضي الله عنه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] « يَكُونُ فِي أُمَّتِي قَوْمٌ شَعِثَةٌ رُؤُوسُهُمْ دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُمْ » قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص ، فجعل يتخطى النار : فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقني بالنار . قال فاعزم على النار أن تطفأ . قال فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشي ذات يوم ، فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال ضل حماري ولا أملك غيره. قال فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره . قال فظهر حماره في الوقت، ومر أبو حفص رحمه الله

فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس ، وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون في كلامهم ، ومناجاتهم في خلواتهم ، أشياء هي كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم ، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ، ويليق بهم . وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم ... والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له ... ياحسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما . ففي القرءان

---

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمتي قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم ابن أبي الدنيا في كتاب الاولياء وفيه انقطاع وجهالة

تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرءان تنبيهات لأولى البصائر والأبصار ، حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء

فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس ، أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ، ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة ، أما إبليس فأبلس عن رحمته ، وقيل إنه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيـــه (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [1]) وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الإعراض عن عبد والإقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ، ولكن فى الحال مختلفان ، فقال (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى [2]) وقال فى الآخر (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [3]) وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ [4]) وأمره بالإعراض عن غيرهم فقال (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ [5]) حتى قال (فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [6]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [7])

فكذا الانبساط والإدلال ، يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ [8]) وقوله فى التعلل والاعتذار ، لما قيل له اذهب إلى فرعون فقال (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ [9]) وقوله (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي [10]) وقوله (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى [11]) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب ، لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ، ونودي عليه إلى يوم القيامة (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ [12]) قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهي نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، وقيل له (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ [13])

(١) طه : ٦٣ ، ٦٤ (٢) عبس : ٨ (٣) عبس : ٥ (٤ ، ٥ ، ٦) الأنعام : ٥٤ ، ٦٨ (٧) الكهف : ٢٨
(٨) الاعراف : ١٥٥ (٩) الشعراء : ١٤ (١٠) الشعراء ١٢ ، ١٣ (١١) طه : ٤٥ (١٢ ، ١٣) القلم : ٤٩ ، ٤٨

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات ، وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد وقد قال تعالى (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ [1]) وقال (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [2]) فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه فقال (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [3]) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس. وأما يحي بن زكريا عليه السلام ، فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه فقال (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ [4]) وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف،وقد قال بعض العلماء : قدعددت من أول قوله تعالى (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا [5]) إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاوأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض . وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفرلهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر، حتى قيل محي من ديوان النبوة

وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء ، فأكل الدنيا بالدين ، فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين ، وكانت معصيته فى الجوارح ، فعفا عنه . فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام . يارأس العابدين ، ويا ابن محجة الزاهدين ، إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف ، وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة؟ فوعزتي وجلالي ، لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه ، لأتركنه مثلة لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام ، أخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، فخرج حتى علا كثيبا من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء ، وقال إلهي وسيدي ، أنت أنت ، وأنا أنا ، فكيف أتوب إن لم تتب علي ، وكيف أستعصم إن لم تعصمني لأعودن . فأوحى الله تعالى إليه . صدقت يا آصف ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أستقبل التوبة ، وقد تبت عليك ، وأنا التواب الرحيم . وهذا كلام مدل به عليه ، وهارب منه إليه ، وناظر به إليه

وفى الخبر أن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة . كم من ذنب واجهتني به غفرته لك ، قد أهلكت فى دونه أمة من الأمم

(١) الاسراء : ٥٥ (٢) البقرة : ٢٥٣ (٣ و ٤) مريم : ٣٣ ، ١٥ (٥) يوسف : ٨

فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل، والتقديم، والتأخير: على ما سبقت به المشيئة الأزلية. وهذه القصص وردت في القرءان لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرءان شيء إلا وهو هدي ونور، وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [١]) وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ [٢]) وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة، فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [٣]) (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [٤])

ولا يعدو القرءان هذه الأقسام الثلاثة، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس، وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرءان فقال [١] «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْءَانِ» لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور، لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (لَمْ يَلِدْ [٥]) ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (وَلَمْ يُولَدْ [٦]) ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله، ودل عليه قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [٧]) ويجمع جميع ذلك قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [٨]) وجملته تفصيل قول لا إله إلا الله

فهذه أسرار القرءان، ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرءان. ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوروا القرءان والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين، وهو كما قال. ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه، حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر، مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرءان معبأة في طي القصص والأخبار، فكن

---

(١) حديث من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرءان: أحمد من حديث أبي بن كعب باسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه

(١) الصمد (٢) الحشر: ٢٣ (٣) الفجر ٦، ٧ (٤) الفيل: ١ (٥، ٦، ٧، ٨) الصمد

حريصا على استنباطها، لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه

فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذى هو ثمرته ، وبيان تفاوت عباد الله فيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم

القول

فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد فى فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقربين . وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل ، وفهمه وفقهه فى الدين . فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ، ثم قالوا . إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله ، فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى . وانخدع بذلك قوم ، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق ، وترك الاعتراض والإنكار ، من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع ، لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لابن عباس حيث قال « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ »

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ، ثم نذكر حقيقة الرضا ، وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه ، كترك الدعاء والسكوت على المعاصى

بيان

فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [1]) وقد قال تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [2]) ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده ، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ [3]) فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن ، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ [4]) فكما أن مشاهدة المذكور

---

(١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل : متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ، ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم فى العلم

(١) البينه : ٨ (٢) الرحمن : ٦٠ (٣) التوبة : ٧٢ (٤) العنكبوت : ٤٥

فى الصلاة أكبر من الصلاة ، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة . بل هو غاية مطلب سكان الجنان

وفى الحديث [١] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُونِى فَيَقُولُونَ رِضَاكَ »
فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل

وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته

وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه . ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر . فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب

وقال الله تعالى (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [١]) قال بعض المفسرين فيه : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين . إحداها : هدية من عند الله تعالى ، ليس عندهم فى الجنان مثلها . فذلك قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [٢]) والثانية السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلا ، وهو قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [٣]) والثالثة يقول الله تعالى : إنى عنكم راض ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ [٤]) أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى ، وهو ثمرة رضا العبد

وأما من الأخبار . فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] سأل طائفة من أصحابه « مَا أَنْتُمْ ؟ » فقالوا مؤمنون . فقال « مَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ » فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ »

---

(١) حديث ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك : البزار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل كرامتى فسلونى فيسألونه الرضا ـ الحديث : ورواه أبو يعلى بلفظ ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ـ الحديث : ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم ـ الحديث : تقدم

---

[١] ق : ٣٥ [٢] السجدة : ١٧ [٣] يس : ٥٨ [٤] التوبة : ٧٢

وفي خبر آخر [1] أنه قال « حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ »

وفي الخبر . [2] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلامِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافاً وَرَضِيَ بِهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ رَضِيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ » وقال أيضا « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْداً ابْتَلاهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ »

وقال أيضا [4] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْبَتَ اللهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيهَا وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلائِكَةُ هَلْ رَأَيْتُمُ الْحِسَابَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا حِسَاباً فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ جُزْتُمُ الصِّرَاطَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا صِرَاطاً فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا شَيْئاً فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ مِنْ أُمَّةِ مَنْ أَنْتُمْ فَيَقُولُونَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ نَاشَدْنَاكُمُ اللهَ حَدِّثُونَا مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ خَصْلَتَانِ كَانَتَا فِينَا فَبَلَغْنَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللهِ فَيَقُولُونَ وَمَا هُمَا فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا خَلَوْنَا نَسْتَحِي أَنْ نَعْصِيَهُ وَنَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِمَّا قُسِمَ لَنَا فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ يَحِقُّ لَكُمْ هَذَا »

وقال صلى الله عليه وسلم « يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ [5] أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلاَّ فَلا » . وفي أخبار موسى عليه السلام ، أن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ماقالوا . فقال ياموسى : قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ماروي

---

(١) حديث أنه قال في حديث آخر حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء : تقدم أيضا

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به : الترمذي من حديث فضالة ابن عبيد بلفظ وقنع وقال صحيح وقد تقدم

(٣) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل : رويناه في أمالي المحاملي باسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

(٤) حديث اذا كان يوم القيامه أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف وفيه حميد ابن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن وللاحاديث الصحيحة في الورود وغيره

(٥) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا : تقدم

عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ مَالِلهِ عَزَّ وَجلَّ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ »

وفى أخبار داود عليه السلام . مالأوليائى والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم . ياداود إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لايغتمون

وروي أن موسى عليه السلام قال . يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله . فأوحى الله تعالى إليه . إن رضاي فى كرهك ، وأنت لاتصبر على ماتكره . قال يارب دلنى عليه، قال فإن رضاي فى رضاك بقضائى .

وفى مناجاة موسى عليه السلام . أي رب ، أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى . قال فأي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روي ماهو أشد من ذلك ، وهو أن الله تعالى[٢] قال . أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى ، فليتخذ رباسوائى

ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال[٣] « قَالَ اللهُ تَعَالَى قَدَّرْتُ الْمَقَادِيرَ وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصُّنْعَ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِى وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِى »

وفى الخبر المشهور[٤] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ قَالَ لِمَ وَكَيْفَ »

---

(١) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده ـ الحديث : الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ منزله ومنزلة الله

(٢) حديث قال الله أنا الله لا إله الا أنا من لم يصبر على بلائى ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى واسناده ضعيف

(٣) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا ـ الحديث : لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين ـ الحديث : واسناده ضعيف

(٤) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه الحديث : ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة باسناد ضعيف

وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع ، والفقر ، والقمل ، عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد . ثم أوحى الله تعالى إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك مني ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا . أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ، أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ؟ وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة .

وروي أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج ، فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك ، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه . فقال له بعض ولده . يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ؟ فقال يا بني ، إني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ، إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم

وقال [1] أنس بن مالك رضي الله عنه . خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ، ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن ليته كان . وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول (دَعُوهُ لَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ)

وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد

وأما الآثار . فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز . ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر . وقيل له ما تشتهي ؟ فقال ما يقضي الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل . إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك

وقال عبد العزيز بن أبي رواد . ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ، ولا في لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل

---

(١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

وقال عبد الله بن مسعود . لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت، أحب إلي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال . إني لأرحمك من هذه القرحة . فقال . إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني

وروي في الإسرائيليات أن عابدا عبد الله دهرا طويلا ، فأري في المنام: فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثة لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ، ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال أمالك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت ماهو والله إلا ما رأيت ، لا أعرف غيره . فلم يزل يقول تذكري حتى قالت : خصيلة واحدة هي في إن كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخاء ، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة ، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل . فوضع العابد يده على رأسه وقال . أهذه خصيلة هذه ؟ والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد

وعن بعض السلف : أن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر

وقال عمر رضي الله عنه : ماأبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء

وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عنا : فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال أستغفر الله : فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة

وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى

وقال أحمد بن أبي الحواري : قال أبو سليمان الداراني . إن الله عز وجل من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم . قلت وكيف ذاك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت نعم . قال فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه

وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ »

بيان

حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر ، فأما الرضا فلا يتصور فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة . فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى ، واستغراق الهم به ، فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله الرجل المحارب ، فإنه في حال غضبه ، أو في حال خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة . بل الذى يغدو فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالّة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور ، مستوفى به ، لم يدرك ما عداه . فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه ، قد يصيبه ما كان يتألم به ، أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه ، فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغلُ القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف ، تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم . فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور تضاعف الألم . وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر ، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة . وجمالُ حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روي أن

---

(١) حديث ان الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا ـ الحديث : الطبرانى من حديث ابن مسعود إلا انه قال بقسطه وقد تقدم

امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه . فقيل له في ذلك ، فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع

وأما الوجه الثاني : فهو أن يحس به ، ويدرك ألمه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا فيه ، مريدا له ، أعني بعقله ، وإن كان كارها بطبعه . كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به ، وراغب فيه ، ومتقلد من الفصاد به منّة بفعله . فهذا حال الراضي بما يجرى عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ، ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر ، وجعله راضيا بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى ، وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته ، رضي به ، ورغب فيه ، وأحبه ، وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه

ويجوز أن يغلب الحب ، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه ، لا لمعنى آخر وراءه . فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا . وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق ، وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر . فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم ، مشحون بالأقذار والأخباث ، بدايته من نطفة مذرة ، ونهايته جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك للجمال ، فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا ، فترى الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبا ، والقبيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي ، الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت حية عند الله ، فرحة برزق الله تعالى ، مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف !

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار . ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم . فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها

وقال الجنيد : سألت سريا السقطي ، هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا . قلت وإن ضرب بالسيف ؟ قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ، ضربة على ضربة

وقال بعضهم : أحببت كل شيء بحبه ، حتى لو أحب النار أحببت دخول النار

وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فتبعته ، فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنى عاشق. فقلت له : ولم سكت؟ قال لأن معشوقى كان بحذائى ينظر إلي . فقلت : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعق زعقة خر ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ، ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم . فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ، إذا لاحظت جلاله هابت ، وإذا لاحظت جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان فى بدايتى ، فإذا برجل أعمى ، مجذوم ، مجنون قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال : من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ؟ لو قطعنى إربا إربا ماازددت له إلا حبا . قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد و بين ربه فأنكرتها

وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام . كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القرءان ماهو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ماأحسسن بذلك

وقال سعيد بن يحيى : رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مدية ، وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله ، وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول ... والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل ... لكن مهجتى التى تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا . فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لى : إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا .

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دلنى على أعبد أهل الأرض. فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه ، وذهب ببصره ، فسمعه وهو يقول . إلهى متعتنى بهما ماشئت أنت ، وسلبتنى ماشئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل ، يابر ياوصول

ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن ، فاشتدّ وجده عليه، حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث . فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سروراً أبدا منه . فقيل له في ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به

وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب ، وحمار ، وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له ، وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا . ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله ، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرا . ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : عسى أن يكون خيرا . ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم. قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب، والحمير، والديكة . فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذاً من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص ، مقعد مضروب الجنبين بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له عيسى : ياهذا ، أي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال ياروح الله ، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ماجعل في قلبي من معرفته . فقال له : صدقت ، هات يدك . فناوله يده ، فإذا هو أحسن الناس وجها ، وأفضلهم هيئة، وقد أذهب الله عنه ما كان به . فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ، ثم قال . الحمد لله الذى أخذ مني واحدة ، وأيمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ؛ ثم لم يدع ورده تلك الليلة . وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطيتان ماأبالي أيتهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل

وقال أبو سليمان الداراني تدنلت من كل مقام حالا إلا الرضا . فمالي منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنت بذلك راضيا

وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا

قدلته . لوجعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق عليّ إلى الجنة ، ثم ملأ بى جهنم تحلة لقسمه ، وبدلا من خليقته ، لأحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه ، حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بقي إحساس فيغمره مايحصل من لذته فى استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه فى النار ، واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه ، وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغى أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ، ويظن أن ماهو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء · وقال الروذبارى : قلت لأبى عبدالله ابن الجلاء الدمشقى . قول فلان وددت أن جسدى قرض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق أطاعوه ، مامعناه ؟ فقال ياهذا ، إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف ، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف . قال ثم غشي عليه

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، قد نقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء ، فجعل يبكى لمايراه من حاله · فقال لم تبكى ؟ قال لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة . قال لاتبك ، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إليّ . ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم عليّ حتى أموت : إن الملائكة تزورنى فآنس بها ، وتسلم عليّ فأسمع تسليمها ، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة . فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف لا يكون راضيا به

قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده ، فرأينا ثوبا ملقى ، فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلى فداؤك ، مانطعمك مانسقيك ، فقال طالت الضجعة ، ودبرت الحراقيف ، وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ، ولا أسيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياما وما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر

ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة ، وقد كان كف بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام ، فتعرفت إليه فعرفني وقال : أنت قارىء أهل مكة ؟ قلت نعم . فذكر قصة قال فى آخرها · فقلت له ياعم ، أنت تدعو للناس ، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك

بصرك ؟ فتبسم وقال . يابني ، قضاء الله سبحانه عندى أحسن من بصرى

وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر . فقيل له . لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال إعتراضى عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدى

وعن بعض العبّاد أنه قال . إنى أذنبت ذنبا عظيما . فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ، وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له وما هو ؟ قال :قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه

وقيل لعبد الواحد بن زيد . ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة . فقصده فقال له ياحبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به ؟قال لا . قال أنسيت به ؟ قال لا . قال فهل رضيت عنه ؟قال لا قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم . قال لولا أنى أستحيى منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعدّ فى طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه فى أعمال الجوارح التى هي مزيد أهل العموم

ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه ، وقد جمع بين يديه حجارة . فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة ، فتهاربوا فقال مابالكم ادعيتم محبتى ؟ إن صدقتم فاصبروا على بلائى

وللشبلى رحمه الله تعالى

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام : كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه . وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ،ولو كان بها شلل ظل يوأريها. يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به،والبلاءزينة أهل الآخرةوهم يستنكفون منه

وقيل إنه وقع الحريق فى السوق ، فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك . فقال الحمد لله . ثم قال . كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبةواستغفارا من قوله الحمدلله.

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا ، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود ، كالرضا بالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء انتظارا للشفاء .

والثاني الرضا به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ، ونفوذ إرادته ، ولو في هلاك روحه كما قيل

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم . وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس ، فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى   على العاشقين البكا
ولا سيما عاشق   إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى . أحسنت والله ياسيدتي ، أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت مت راشدا . قال فوضع رأسه على الوسادة ، وأطبق فمه ، وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت

وقال الجنيد . رأيت رجلا متعلقا بكم صبي ، وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي ؟ فقال قد علم الله أني صادق فيما أورده ، حتى لو قلت لي مت لمت . فقال إن كنت صادقا فمت . قال: فتنحى الرجل وغمض عينيه ، فوجدميتا

وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه . قال : فدهش الرجل ، وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه . فقالت

الجارية : ماهذا ؟ قال هذا مكان قولك آه . وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادى قال : رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقدأشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا   لاخير فى عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض ، فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قديصدق به فى حب المخلوق والتصديق به فى حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ؟ وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال . بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال

نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذى فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة فالذى فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لامظنة لها سوى القلب

بيان

أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولايخرج صاحبه عن مقام الرضا . وكذلك كراهة المعاصى ، ومقت أهلها ، ومقت أسبابها ، والسعي فى إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه أيضا . وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين ، وزعم أن المعاصى ، والفجور ، والكفر ، من قضاء الله وقدره عزوجل ، فيجب الرضا به . وهذا جهل بالتأويل . وغفلة عن أسرار الشرع

فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، على مانقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا [1])

وأما إنكار المعاصى وكراهتها ، وعدم الرضا بها ، فقد تعبد الله به عباده ، وذمهم على الرضا به فقال (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [2]) وقال تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [3]) وفى الخبر المشهور «مَنْ شَهِدَ مُنْكَراً فَرَضِيَ بِهِ فَكَأَنَّهُ قَدْ فَعَلَهُ» وفى الحديث [1] «الدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلِهِ»

---

(١) حديث الدال على الشر كفاعله : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا

---

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) يونس : ٧ (٣) التوبة : ٩٣

وعن ابن مسعود . إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه . قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به . وفى الخبر [١] « لَوْ أَنَّ عَبْداً قُتِلَ بِالْمَشْرِقِ وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخَرُ بِالْمَغْرِبِ كَانَ شَرِيكاً فِي قَتْلِهِ » . وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور ، فقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [١])

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبُثُّهَا فِي النَّاسِ وَيُعَلِّمُهَا وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ » وفى لفظ آخر « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ آتَانِي اللهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ »

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم ، فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى ، مثل قوله تعالى (لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [٢]) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [٣]) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً [٤])

وفى الخبر [٣] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُنَافِقٍ وَعَلَى كُلِّ مُنَافِقٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُؤْمِنٍ » وقال عليه السلام [٤] « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال [٥] « مَنْ أَحَبَّ قَوْماً وَوَالاَهُمْ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

---

(١) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله : لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولابن عدى من حديث أبى هريرة من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها وتقدم فى كتاب الأمر بالمعروف

(٢) حديث لا حسد إلا فى اثنتين ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث ان الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٤) حديث المرء مع من أحب : تقدم

(٥) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم : الطبرانى من حديث أبى قرصافة وابن عدى من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر فى زمرتهم زاد ابن عدى يوم القيامة وفى طريقه اسماعيل ابن يحيي التيمى ضعيف

---

(١) المطففين : ٢٦ (٢) آل عمران : ٢٨ (٣) المائدة : ٥١ (٤) الأنعام : ١٢٩

وقال عليه السلام [١] « أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ »

وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفى كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار [٢] بالرضا بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال ، وهو قادح فى التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟ وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شيء واحد ؟

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض . بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة ، على وجه واحد . فليس من التضاد فى شيء واحد أن يكره من وجه ، ويرضى به من وجه . إذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك ، وساع فى إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله ، واختياره ، وإرادته ، فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ، ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ، ووصفه ، وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه : إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى وأنصب فيه معيارا صادقا ، وميزانا ناطقا ، وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا

---

(١) حديث أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله : رواه أحمد وتقدم فى آداب الصحبة

(٢) الاخبار الواردة فى الرضا بقضاء الله : الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل ـ الحديث : وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث ان الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا وتقدم فى حديث الاستخارة واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء ـ الحديث : وغير ذلك

يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوا لى . فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوّى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي . ثم فعل ذلك ، وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق فى محبته ، وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده ، وتعريضك إياه للبغض والعداوة ، فأنا محب له ، وراض به ، فإنه رأيك وتدبيرك ، وفعلك وإرادتك . وأما شتمه إياك ، فإنه عدوان من جهته، إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه . فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك ، وتعويقا فى مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك . ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص ، وكسب له ، وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك ، إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ، ومن حيث هو وصف له ،لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ، ومحب له ، لأنه مرادك ، وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ، ولعدوّه عدوّا . وأما بغضه لك فإنى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك، وسلطت عليه دواعى البغض ، ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله، وأمقته لذلك ، فهو ممقوت عندى لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه ، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي ،

وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضي ، ومن حيث إنه مرادك مكروه . وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده ، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه . ويشهد لذلك كل مايكره من وجه، ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى

فإذاً تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه ، حتى يجره ذلك إلى حب المعصية، ويجره الحب إلى فعل المعصية ، يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا . ليجره الضرب إلى الغضب ، والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه، وإن كانت معصيته بتدبيره

يشبه بغض المشتوم لمن شتمه ، وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ، أعني تسليط دواعي المعصية عليه ، يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته ، فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ، ويمقت من مقته الله ، ويعادي من أبعده الله عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ، ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله ، والحب في الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة في مقتهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه . وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به . فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل ، وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « أَلْقَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلاَ تُفْشُوهُ » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ، ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة ، والعصمة من المعاصي ، وسائر الأسباب المعينة على الدين ، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر ، وخشوع القلب ، ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ، ومفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز ، وشرب الماء ، ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش . وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه

---

(١) حديث القدر سر الله فلا تفشوه : ابو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتّبه لله تعالى وأمر به ، وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ، واستقصيناه فى كتاب التوكل ، فهو أيضا لا يناقض الرضا ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ، ويتصل به .

نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا . وإظهار البلاء على سبيل الشكر ، والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هـذا يوم حار . أي فى معرض الشكاية ، وذلك فى الصيف . فأما فى الشتاء فهو شكر . والشكوى تناقض الرضا بكل حال . وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى وقول القائل . الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، والاحتراف كدّ ومشقة ، كل ذلك قادح فى الرضا . بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره ، والمملكة لمالكها ، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى لا أدرى أيهما خير لى

بيان

أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن [1] أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون ، يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى ، وذلك محال : بل العلة فى النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون ؛ أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء ، وبقى فيه المرضى مهملين ، لا متعهد لهم ، فيهلكون هزالا وضرا . ولذلك [2] شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف . ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف . وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل

وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بدّ من الفرار منه . وكذلك مذمّة المواضع التى تدعو إلى المعاصى

---

(١) حديث النهى عن الخروج من بلد الطاعون : تقدم فى آداب السفر

(٢) حديث انه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف : تقدم فيه

والأسباب التي تدعو إليها ، لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة ، فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك ، حتى اتفق جماعة على ذم بغداد ، و إظهارهم ذلك ، وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد . قيل وكيف؟ قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له . كيف رأيت بغداد؟ قال ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان ، أو تاجرا لهفان، أو قارئا حيران. ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة، لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به و إنما قصد بذلك تحذير الناس

وكان يخرج إلى مكة ، وقد كان مقامه ببغداد ، يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينارا ، لكل يوم دينار كفارة لمقامه

وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال العراق . قال فما تصنع به ، بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قرينا من البلاء

وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر ، وفيه الداء العضال

وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام ، وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض، فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال بغداد . فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان ، فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة

وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول لا تقتدوا بي في المقام بها ، من أراد أن يخرج فليخرج

وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي . قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور

وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدهم زاهد ، وشريرهم شرير

فهذا يدل على أن من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ، ويقل فيها الخير ، فلا عذر له في المقام بها

بل ينبغي أن يهاجر . قال الله تعالى (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[1])
فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة ، فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله ، مطمئن النفس إليه ،
بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها ، قائلا على الدوام (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا[2]) وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ، ودمر الجميع ، وشمل المطيعين .
قال الله تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً[3])

فإذاً ليس في شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق ، إلا من حيث إضافتها
إلى فعل الله تعالى . فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث ، رجل يحب الموت شوقا إلى
لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره
الله تعالى . ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا

واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط . فقال
الثوري : كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت . فقال له
يوسف : لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لا أكره طول البقاء . فقال
سفيان : لم ؟ قال لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا . فقيل لوهيب . أيش تقول
أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالى فقبله الثوري
بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة

بيان

جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين . إنك محب . فقال : لست محبا ، إنما أنا محبوب ، والمحب متعوب
وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة . فقال : أنا كل السبعة . وكان يقول
إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا : قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قيل لأني رأيت
أربعين بدلا ، وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له . بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام

---

(١) النساء : ٩٧ (٢) النساء : ٧٥ (٣) الأنفال : ٢٥

فتبسم وقال : ليس العجب ممن يرى الخضر ، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه

وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال : ماحدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته ، إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه

وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى . فصاح ثم قال : ويلكم ، لايصلح لكم أن تعلموا ذلك . قيل : فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال : وهذا أيضا لايجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم . دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي ، فعزمت عليها أن لاأشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيي بن معاذ ، أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته ، من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزا على صدور قدميه ، رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصا بعينيه لايطرف . قال ثم سجد عند السحر فأطاله ، ثم قعد فقال . اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء ، والمشي في الهواء ، فرضوا بذلك . وإني أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض ، فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض ، فرضوا بذلك ، وإني أعوذ بك من ذلك . حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء . ثم التفت فرآني ، فقال يحيي ؟ قلت نعم ياسيدي . فقال مذ متى أنت ههنا ؟ قلت منذ حين . فسكت . فقلت ياسيدي حدثني بشيء . فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل ، فدورني في الملكوت السفلي ، وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي ، فطوف بي في السموات ، وأراني مافيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه . فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت ياسيدي مارأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه . فقال أنت عبدي حقا ، تعبدني لأجلي صدقا ، لأفعلن بك ولأفعلن ، فذكر أشياء . قال يحيي : فهالني ذلك وامتلأت به ، وعجبت منه ، فقلت ياسيدي لم لاسألته المعرفة به ، وقد قال لك ملك الملوك سلني ماشئت ؟ قال فصاح بي صيحة ، وقال اسكت ويلك . غرت عليه مني حتى لاأحب أن يعرفه سواه

وحكي أن أبا تراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين ، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته ، فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول .

فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد ،هاج وجد المريد فقال : ويحك ،ما أصنع بأبى يزيد ؟ قد رأيت الله تعالى فأغنانى عن أبى يزيد . قال أبو تراب : فهاج طبعى ، ولم أملك نفسى ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل ! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة . قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك ، أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت ، فقال: احملنى إليه. فذكر قصة قال فى آخرها : فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع ، قال: فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه . فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه . فقلت لأبى يزيد : ياسيدى نظره إليك قتله . قال لا : ولكن كان صاحبكم صادقا ، واستكن فى قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه ، فضاق عن حمله لأنه فى مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال: إن لله عبادا فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات فى ليلة واحدة ، ولكن لا يفعلون . قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب . ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال : ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها

وهذه أمور ممكنة فى أنفسها، فمن لم يحظ بشىء منها فلا ينبغى أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها، فإن القدرة واسعة، والفضل عميم ، وعجائب الملك والملكوت كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له. ولذلك كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى، وخلة إبراهيم، فاطلب ما وراء ذلك، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم، ومن هو فى مثل حالهم، لأنهم الأمثل فالأمثل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء ، رأيتهن يتساعين فى الهواء ، عليهن ثياب من ذهب ، وفضة وجوهر، يتخشخش ويتثنى معهن ، فنظرت إليهن نظرة ، فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال ، وقيل لى انظر إليهن ، قال فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر إليهن ، وقلت : أعوذ بك

مما سواك ، لاحاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى

فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة ، وقلبه القاسى ، لضاق مجال الإيمان عليه . بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ، ونيل مقامات كثيرة، أدناها الإخلاص،وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال ، حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول . فهذه أوائل سلوكهم ، وأقل مقاماتهم، وهي أعز موجود فى الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين،وينكشف له مبادى الحق ،وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شكلت ، ونقيت ، وصقلت ، وصورت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى مافى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث ،وهو لايحكى صورة من الصور ، فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء ، إذ لامستند له إلا قصوره عن ذلك،وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى . بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادى الطريق ، كما قيل لبشر . بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال.كنت أكاتم الله تعالى حالى . معناه أسأله أن يكتم علي ويخفى أمرى . وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لى . فقال: يسر الله عليك طاعته ، قلت :زدنى قال:وسترها عليك . فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتي لاتلتفت أنت إليها

وعن بعضهم أنه قال : أقلقنى الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء علي . قال:فرأيته ، فما غلب علي همى ولا همتى إلا أن قلت له : ياأبا العباس ، علمنى شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ، ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة . فقال :قل اللهم أسبل علي كثيف سترك ، وحط علي سرادقات حجبك ، واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك . قال:ثم غاب فلم أره ، ولم أشتق إليه بعد ذلك . فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم . فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن، حتى كان أهل الذمة يسخرون به، ويستسخرونه فى الطرق

يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم . وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله في ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى . ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا . والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة ، وفي المشهورين بين الخلق بالعلم ، والورع ، والرياسة . وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم ، كما قال تعالى: أوليائي تحت قبابي ، لا يعرفهم غيري . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ »

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة، المعجبة بأنفسها، المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة ، المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه . فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه ، بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات ، فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادى هذه الروائح . فإن فقدنا مثل هذا القلب ، وحرمنا مثل هذا الروح ، فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله . فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله ، مؤمنا بهم ، فعسى أن يحشر مع من أحب

ويشهد لهذا ما روي أن عيسى عليه السلام قال لبني اسرائيل : أين ينبت الزرع ؟ قالوا في التراب . فقال : بحق أقول لكم ، لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روي أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد ، دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ، ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله في المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك . فقال : قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة، حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد. ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت

وعنه أيضا أنه قال : نزلت في محلة ، فعرفت فيها بالصلاح ، فتشتت علي قلبي، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ، ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت ، وجعلت أمشي قليلا قليلا ، فلحقوني فنزعوا مرقعتي ، وأخذوا الثياب، وصفعوني وأوجعوني

---

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

رياء ، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام ، فسكنت نفسي

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ، ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى ، وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بُعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها ، وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكي أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما . أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر ، وأقوم الليل لا أنام ، ولا أجد في قلبي من هـذا العلم الذي تذكر شيئا ، وأنا أصدّق به وأحبه . فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثمائة سنة ، وقمت ليلها ماوجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك . قال فلهـذا دواء ؟ قال نعم . قال قل لي حتى أعمله . قال لا تقبله . قال فاذكره لي حتى أعمله . قال اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق في عنقك مخلاة مملوأة جوزا ، واجمع الصبيان حولك ، وقل كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة ، وادخل السوق ، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل : سبحان الله ، تقول لي مثل هذا ؟ فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا أفعله ، ولكن دلني على غيره فقال ابتدئ بهذا قبل كل شيء . فقال لا أطيقه . قال قد قلت لك إنك لا تقبل . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه . ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله . فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض ، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا

وهذه أمور جلية في الشرع واضحة ، وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَايَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّى تَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ لَايُعْرَفَ أَحَبَّ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ » وقد قال

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلي ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلا

عليه السلام (١) « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ وَلَا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ آثَرَ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا » وقال عليه السلام (٢) « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ وَإِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ وَإِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ » وفى حديث آخر (٣) « ثَلَاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ » . فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولى الإيمان ، فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط، ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمان

وفى الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه . إنما أتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ، ولا يؤثر عليّ شيئا من خلقى ، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا ، وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ماوراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب ، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لاحصر له ، ولذلك قال عليه السلام (٤) للصديق رضي الله عنه « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِي مِنْ أُمَّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ » وفى حديث آخر (٥) « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلَثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فقال أبو بكر . يارسول الله ، هل فيّ منها خلق ؟ فقال « كُلُّهَا فِيكَ

---

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لايخاف فى الله لومة لائم ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنسائى ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد

(٢) حديث لايكمل ايمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ـ الحديث: الطبرانى فى الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الايمان واسناده ضعيف

(٣) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ماأوتى آل داود العدل فى الرضا والغضب : غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن نحوه وقد تقدم

(٤) حديث انه قال للصديق ان الله قد أعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من أمتى ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف

(٥) حديث ان الله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ـ الحديث: الطبرانى فى الأوسط

يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ السَّخَاءُ » . وقال عليه السلام[1] « رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِهِمْ وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَجِيءَ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره ، فقال[2] « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى » يعني بنفسه

خاتمة الكتاب

بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان . المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره . دوام الذكر . وقال غيره . إيثار المحبوب . وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه ، وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد . حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض ، فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله إحذر أن تذل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله . صف لنا العارف والمحب فقال . العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكت هلك . وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم ... حبك بين الحشا مقيم

يا رافع النوم عن جفوني ... أنت بما مر بي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيت

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظني ما حييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الاسلام ثلثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان ان الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ـ الحديث : وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة

(١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ـ الحديث : أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٢) حديث لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

شربت الحب كاسا بعد كاس　　فما نفذ الشراب وما رويت

فليت خياله نصب لعيني　　فإن قصرت فى نظرى عميت

وقالت : رابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام . إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي، وتوليته بحفظى . وقيل : تكلم سمنون يوما فى المحبة ، فإذا بطائر نزل بين يديه ، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتني من محبتك ، وآنستني بذكرك ، وفرغتني للتفكر فى عظمتك . وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش

وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت والله إنى لأحبه حبا شديدا، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين . وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال، فقال الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة، إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلى : الحب دهش فى لذة، وحيرة فى تعظيم . وقيل : المحبة أن تمحو أثرك عنك، حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك . وقيل : المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : المحبة محو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات

وسئل سهل عن المحبة فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل : معاملة المحب على أربع منازل . على المحبة، والهيبة، والحياء ، والتعظيم . وأفضلها التعظيم والمحبة، لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهي تحسره فى الدنيا . وتروحه فى الآخرة

وقال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية، والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه. قال : فقلت لها . فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا . ولكن لحبي إياه، وحسن ظنى به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم

ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي. ياداود هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي! ياداود، أحوج مايكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل مايكون عندي إذا رجع إلي

وقال أبو خالد الصفار: لقي نبي من الأنبياء عابدا، فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء، ونحن نعمل على المحبة والشوق

وقال الشبلي رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداود، ذكرى للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام. ياآدم، من أحب حبيبا صدق قوله. ومن أنس بحبيبه رضي فعله، ومن اشتاق إليه جد في مسيره

وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول. واشوقاه لمن يراني ولا أراه

وقال الجنيد رحمه الله. بكى يونس عليه السلام حتى عمي، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد وقال. وعزتك وجلالك لوكان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا مني إليك

وعن [1] علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال «الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي وَالْعقلُ أَصْلُ دِينِي وَالْحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسِي وَالثِّقَةُ كَنْزِي وَالْحُزْنُ رَفِيقِي وَالْعِلْمُ سِلَاحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالْعَجْزُ فَخْرِي وَالزُّهْدُ حِرْفَتِي وَالْيَقِينُ قُوَّتِي وَالصِّدْقُ شَفِيعِي وَالطَّاعَةُ حُبِّي وَالْجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وقال ذوالنون. سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة، فأرواح العارفين جلالية قدسية، فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية، فلذلك حنوا إلى الجنة، وأرواح الغافلين هوائية، فلذلك مالوا إلى الدنيا. وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون، ضعيف البدن، وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال: الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه، حتى يحرق بها مافي قلوبهم من الخواطر والإرادات، والعوارض والحاجات. فهذا القدر كاف في شرح المحبة، والأنس، والشوق والرضا، فلنقتصر عليه، والله الموفق للصواب

تم كتاب المحبة، والشوق، والرضا، والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص، والصدق

---

(١) حديث علي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني الحديث: ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسنادا

كتاب النية والإخلاص والصدق

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين . وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [1]) فما لله إلا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع النبيين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرءان أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً [2])

وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه . فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص ، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص ، ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب .

الباب الأول : في حقيقة النية ومعناها

الباب الثاني : في الإخلاص وحقائقه

الباب الثالث : في الصدق وحقيقته

---

(١) البينة : ٥ (٢) الفرقان : ٢٣

الباب الأول

فى النية

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرا من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

بيان

فضيلة النية

قال الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ[(١)]) والمراد بتلك الإرادة هي النية . وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَاهَاجَرَ إِلَيْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « أَكْثَرُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الْفُرُشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ » . وقال تعالى (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا[(٢)]) فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية .

وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالاً حَسَنَةً فَتَصْعَدُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَلْقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِمَا فِيهَا وَجْهِي ثُمَّ يُنَادِي الْمَلَائِكَةَ اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّهُ نَوَاهُ » .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(١) حديث انما الأعمال بالنيات ـ الحديث : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته : أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة ,

(٣) حديث إن الله لاينظر الى صوركم وأموالكم ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ـ الحديث : الدارقطنى من حديث أنس باسناد حسن

---

(١) الأنعام : ٥٢ (٢) النساء : ٣٥

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « النَّاسُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْماً وَمَالاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِيَ اللهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِيَ اللهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ » ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه

وكذلك في حديث أنس بن مالك . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك [٢] قال « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَاقَطَعْنَا وَادِياً وَلاَ وَطِئْنَا مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ أَنْفَقْنَا نَفَقَةً وَلاَ أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ إِلَّا شَرِكُونَا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا قال « حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » فشركوا بحسن النية

وفي حديث [٣] ابن مسعود « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً فَهُوَ لَهُ » فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس . وكذلك جاء في الخبر [٤] أن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ، لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره ،فقتل على ذلك، فأضيف إلى نيته

وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم [٥] « مَنْ غَزَا وَهُوَ لاَ يَنْوِي إِلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَانَوَى » وقال [٦] أبيّ استعنت رجلا يغزو معي ، فقال لاحتى تجعل لي جعلا. فجعلت له . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إِلاَّ مَاجَعَلْتَ لَهُ »

---

(١) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي كبشة الانماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح

(٢) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا ـ الحديث : البخاري مختصرا وأبو داود

(٣) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبراني باسناد جيد

(٤) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار : لم أجد له أصلا في الموصولات وإنما رواه أبو إسحق الفزاري في السنن من وجه مرسل

(٥) حديث من غزا وهو لاينوي الا عقالا فله مانوى : النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة

(٦) حديث أبي استعنت رجلا يغزو معي فقال لاحتى تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ماجعلت له : الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية انه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماأجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة الا دنانيره التي سمى

وروي في الاسرائيليات . أن رجلا مرّ بكثبان من رمل في مجاعة ، فقال في نفسه . لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له : إن الله تعالى قد قبل صدقتك ، وقد شكر حسن نيتك ، وأعطاك ثواب مالوكان طعاما فتصدقت به

وقد ورد في أخبار كثيرة [١] « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » وفي حديث [٢] عبد الله بن عمرو « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَايَكُونَ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَهَا أَزْهَدَ مَايَكُونُ فِيهَا »

وفي حديث [٣] أم سلمة . أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يارسول الله : يكون فيهم المكره والأجير . فقال « يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ »

وقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [٤] « إِنَّمَا يَقْتَتِلُ الْمُقْتَتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ » وقال عليه السلام [٥] « إِذَا الْتَقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَكْتُبُ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فُلاَنٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فُلاَنٌ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فُلاَنٌ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً أَلاَ فَلاَ تَقُولُوا فُلاَنٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » . وعن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [٦] « يُبْعَثُ

---

(١) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة : متفق عليه وقد تقدم

(٢) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل جعل الله فقره بين عينيه ـ الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت باسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب مايكون فيها ودون قوله وفارقها أزهد مايكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم : مسلم وأبو داود وقد تقدم

(٤) حديث إنما يقتتل المقتتلون على النيات : ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص والنية من حديث عمر باسناد ضعيف بلفظ انما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ انما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبي هريرة انما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

(٥) حديث اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

(٦) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه : رواه مسلم

كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَامَاتَ عَلَيْهِ » وفى حديث [١] الأحنف عن أبى بكرة « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قيل يارسول الله : هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » . وفى حديث [٢] أبى هريرة « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لَايَنْوِى أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٍ وَمَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ لَا يَنْوِى قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ »

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ماافترض الله تعالى ، والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز . اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البَرُّ همته التقوى ، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك

وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل ، ومادمت تنوى الخير فأنت بخير

وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول : من يدلني على عمل لاأزال فيه عاملا لله تعالى ، فإني لاأحب أن يأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله . فقيل له : قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير مااستطعت ، فإذا فترت أو تركته فهُمّ بعمله فإن الهامّ بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها ، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين يغفر لكم مابين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولم تهم بمعصية ،

---

(١) حديث الأحنف عن أبي بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار : متفق عليه

(٢) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهولاينوى أداءه فهوزان : أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق

(٣) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ـ الحديث : أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسلا

وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ[1]) يبكى ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا ،وهتكت أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بالنيات .

وقال أبو هريرة : مكتوب فى التوراة . ماأريد به وجهى فقليله كثير ، وما أريد به غيرى فكثيره قليل وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن ، فلا يدعه الله عزوجل وقوله حتى ينظر فى عمله ،فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه . فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح مادون ذلك

فإذن عماد الأعمال النيات ، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية فى نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق

بيان

حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ،والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون ، اختيارى ، فإنه لايتم إلا بثلاثة أمور علم ، وإرادة ، وقدرة ، لأنه لايريد الإنسان مالا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم . ولا يعمل مالم يرد ، فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال أو فى المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ،ويخالفه بعض الأمور . فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المنافى عن نفسه . فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لايبصر الغذاء ولا يعرفه لايمكنه أن يتناوله ، ومن لايبصر النار لايمكنه الهرب منها . فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، وليس ذلك من غرضنا

(١) محمد : ٣١

ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له ، فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، وشهوة له باعثة عليه . إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ، ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه . فخلق الله تعالى له الميل ، والرغبة والإرادة ، وأعنى به نزوعا فى نفسه إليه ، وتوجها فى قلبه إليه

ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعاما راغب فيه ، مريد تناوله ، عاجز عنه لكونه زمنا . فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول . والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ، أو الظن والاعتقاد ، وهو أن يقوى فى نفسه كون الشيء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد وأن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، أنبعثت الإرادة ، وتحقق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ماهو موافق للغرض ، إما فى الحال وإما فى المآل

فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام ، فلنذكر لكل واحد مثالا واسما

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع ، فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ، فإنه رأى السبع وعرفه ضارا ، فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال نيته الفرار من السبع ، لا نية له فى القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خاص عن مشاركة غيره وممازجته

وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس

أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة، فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضا فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام، ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثاني رفيق الأول: فلنسم هذا مرافقة للبواعث

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي بمجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين، وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب، ولنسم هذا الجنس مشاركة

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجلَ القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة، وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية. ولنسم هذا الجنس المعاونة

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا، أو شريكا، أو معينا وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه، فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل. إنما الأعمال بالنيات، لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها، وإنما الحكم للمتبوع

بيان

سر قوله صلى الله عليه وسلم[1] « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر، ولعمل السر فضل ، وهذا صحيح . ولكن ليس هو المراد ، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه ، أو يتفكر فى مصالح المسلمين ، فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر

وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل، والأعمال لا تدوم، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك؛ فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا فى لحظات معدودة ، والأعمال تدوم . والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهو كذلك، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا، والنية بمجردها خير . وظاهر الترجيح للمشتركين فى أصل الخير

بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل ، وكانت النية من جملة الخيرات ، وكان العمل من جملة الخيرات ، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر فى المقصود ، وأثر النية أكثر من أثر العمل . فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته . والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل ، فهما عملان ، والنية من الجملة خيرهما . فهذا معناه

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل ، فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق فى الاتصال إلى المقصد ، وقاس بعض الآثار بالبعض ، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فمن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد ، وقاس بعضها بالبعض . فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها ، وبقاؤها ، وسلامتها فى الآخرة

---

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله : الطبرانى من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف

وسعادتها ، وتنعمها بلقاء الله تعالى . فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى ، عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها ، حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له . وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته فى الآخرة منوطة بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة ، فإنما يقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة ، حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها ، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله فى الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع . وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر ، وربما زال وامحق . بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره ، فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زَبْراً ودفعاً فى وجهه ، حتى يضعف وينكسر بسببه ، وينقمع وينمحى .

وهكذا جميع الصفات ، والخيرات ، والطاعات كلها هي التى تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هي التى تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ، حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته ، أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء ، وارتعدت الفرائص وتغير اللون . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعى ، والجوارح كالخدم

والرعايا والأتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه . فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ » وقال عليه السلام [(٢)] « اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّةَ » وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [(١)]) وهي صفة القلب

فمن هذا الوجه يجب لامحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل ، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ، ويؤكد فيه الميل إليه ، ليفرغ من شهوات الدنيا ،ويكب على الذكر والفكر ،فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض،لأنه متمكن من نفس المقصود. وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوي بأن يوضع الطلاء على الصدر،وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر،لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع

فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح . فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يجد فى نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه . ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوبا ، لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة . وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا . فيقال : العبادة بغير نية باطلة . وهذا معناه إذا فعل عن غفلة .

---

(١) حديث إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم

(٢) حديث اللهم أصلح الراعى والراعية . تقدم ولم أجده

---

(١) الحج : ٣٧

فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر، لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها، وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا

فهذا وجه كون النية خيراً من العمل . وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير، وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا ، وهي غاية الحسنات . وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً . فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، بل ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالى . وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة ، وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم . والتقوى ههنا أعني القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ قَوْمًا بِالْمَدِينَةِ قَدْ شَرِكُونَا فِي جِهَادِنَا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير ، وبذل المال والنفس ، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى ، كقلوب الخارجين في الجهاد . وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب ، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات

وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النيـــة ، فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة

بيان

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل ، وقول ، وحركة ، وسكون ، وجلب ، ودفع ، وفكر ، وذكر ، وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه ، فهي ثلاثة أقسام : طاعات ، ومعاص ، ومباحات . القسم الأول: المعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية . فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره ، أو يطعم فقيراً من مال غيره ، أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام ، وقصده الخير، فهذا كله جهل ، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً ، وعدواناً ، ومعصية. بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر . فإن عرفه فهو معاند للشرع ؛ وإن جهله

فهو عاص بجهله ، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم . والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ! هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه ، واستمالة قلوب الناس ، وسائر حظوظ النفس ، توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل . ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ماعصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل . قيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال نعم : الجهل بالجهل . وهو كما قال : لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم . فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ، ومنبع فساد العالم . والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور ، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ، ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه (فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [١]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يُعْذَرُ الْجَاهِلُ عَلَى الْجَهْلِ وَلَا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ، المشغولين بالفسق والفجور ، القاصرين هممهم على مماراة العلماء ، ومباراة السفهاء ، واستمالة وجوه الناس ، وجمع حطام الدنيا ، وأخذ أموال السلاطين ، واليتامى ، والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال ، يتكالب على الدنيا ، ويتبع الهوى ، ويتباعد عن التقوى ، ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله . ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ، ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله

---

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط وابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغى بدل ولا يحل وقد تقدم فى العلم

---

(١) الأنبياء : ٧

وافعاله ، وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا ، وألفي سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . ثم العجب من جهله حيث يقول: إنما الأعمال بالنيات ،وقدقصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لامني، وماقصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة، والاستتباع ، والتفاخر بعلو العلم ، يحسّن ذلك في قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه ، وليت شعري ماجوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق ، وأعدله خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء ،والتخلق بأخلاق الله الجميلة ،وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله ، فإن إعداد الخيل ، والرباط ، والقوة للغزاة من أفضل القربات ،فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي . وقدأجمع الفقهاء على أن ذلك حرام ، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)«إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلَثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ السَّخَاءُ» فليت شعري لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم ؟ فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه ،لاأن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله، وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى. فمن لايزال مؤثرا لدنياه على دينه ، ولهواه على آخرته ، وهو عاجز عنها لقلة فضله ، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته

بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلو رأوا منه تقصيرا في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ، ونفوه عن مجالسهم ، وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة ، وما تعوذوا من الفاجر الجاهل

حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد ، وهجره وصار لايكلمه ، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لايذكره حتى

(١) حديث ان لله ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليه السخاء : تقدم في كتاب المحبة والشوق

قال : بلغنى أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع ، وقد أخذت قدر سمك الطين ، وهو أنملة ، من شارع المسلمين ، فلا تصلح لنقل العلم . فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم

وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان ، وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة ، وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التى لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها ، والترغيب فى الآخرة والدعاء إليها ، بل هي العلوم التى تتعلق بالخلق ، ويتوصل بها إلى جمع الحطام ، واستتباع الناس ، والتقدم على الأقران

فإذاً قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد . فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا . نعم للنية دخل فيها ، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ، وعظم وبالها ، كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة

القسم الثانى : الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها ، وفى تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة . [1] تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر : ومثاله القعود فى المسجد فإنه طاعة ، و يمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ؟ و يبلغ به درجات المقربين

أولها : أن يعتقد أنه بيت الله ، وأن داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [2] « مَنْ قَعَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللّٰهَ تَعَالَى وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ »

---

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشرة أمثالها : تقدم

(٢) حديث من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره : ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما فى الصلاة

وثانيها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة ؛ وهو معنى قوله تعالى (وَرَابِطُوا [١])

وثالثها . الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف ، وهو فى معنى الصوم ، وهو نوع ترهب. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْقُعُودُ فِي الْمَسَاجِدِ »

ورابعها : عكوف الهمّ على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد

وخامسها : التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره ، وللتذكر به ، كما روي فى الخبر [٢] « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى أَوْ يُذَكِّرَ بِهِ كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى »

وسادسها : أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لايخلو عمن يسيء فى صلاته ، أو يتعاطى مالايحل له ، فيأمره بالمعروف ، ويرشده إلى الدين ، فيكون شريكا معه فى خيره الذى يعلم منه ، فتتضاعف خيراته

وسابعها : أن يستفيد أخا فى الله ، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله

وثامنها : أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى ، وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله مايقتضى هتك الحرمة. وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا فى الله .أو رحمة مستنزلة .أو علما مستظرفا أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه عن ردىء . أو يترك الذنوب خشية أو حياء

---

(١) حديث رهبانية أمتى القعود فى المساجد : لم أجد له أصلا.

(٢) حديث من غدا الى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى : هو معروف من قول كعب الاحبار رويناه فى جزء بن طوق وللطبرانى فى الكبير من حديث. أبى أمامة من غدا الى المسجد لا يريد الا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجه واسناده جيد وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح

---

(١) آل عمران : ٢٠٥

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير ، وتشمره له ، وتفكره فيه ، فبهذا تزكو الأعمال ، وتتضاعف الحسنات

القسم الثالث : المباحات . وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ، ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة : ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات ، والخطوات ، واللحظات ، فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله ؟ وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لايشوبه كراهة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ » وفي حديث [٢] معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وفي خبر آخر « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ » فاستعمال الطيب مباح ، ولكن لابد فيه من نية

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس ، وكيف يتطيب لله

فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة ؛ وفي سائر الأوقات ، يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولأمور أخر لاتحصى . وكل هذا يجعل التطيب معصية ، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة ، إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم ، فإن ذلك ليس بمعصية ، إلا أنه يسئل عنه . ومن نوقش الحساب عذب ، ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستعجل مايفنى ، ويخسر زيادة نعيم لا يفنى

---

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب : تقدم

(٢) حديث معاذ ان العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه : لم أجد له اسنادا

وأما[1] النيات الحسنة ، فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد ، واحترام بيت الله ، فلا يرى أن يدخله زائر الله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة ، فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية ، كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا • أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ[1]) أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر . وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله : من طاب ريحه زاد عقله

فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات ، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه ، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النية فى شيء

والمباحات كثيرة ، ولا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس بهذا الواحد ماعداه . ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية حتى فى أكلى ، وشربى ، ونومى ، ودخولى إلى الخلاء . وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ماهو سبب لبقاء البدن ، وفراغ القلب من مهمات البدن ، فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه ، وتطييب قلب أهله ، والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده ، فتكثر به أمة محمد صلى الله

---

(١) حديث ان لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب ان كان عنده ولبس أحسن ثيابه ـ الحديث : ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته وفى اسناده اختلاف وفى الصحيحين ان عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة

---

(١) الأنعام : ١٠٨

عليه وسلم، كان مطيعا بأكله ونكاحه. وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع، وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة. ولذلك ينبغي أن يحسن نيته منهما ضاع له مال ويقول: هو في سبيل الله، واذا بلغه إغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوى ذلك بسكوته عن الجواب، ففي الخبر[1] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُحَاسَبُ فَتَبْطُلُ أَعْمَالُهُ لِدُخُولِ الآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ ثُمَّ يُنْشَرُ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَايَسْتَوْجِبُ بِهِ الْجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ يَارَبِّ هَذِهِ أَعْمَالٌ مَاعَمِلْتُهَا قَطُّ فَيُقَالُ هَذِهِ أَعْمَالُ الَّذِينَ اغْتَابُوكَ وَآذَوْكَ وَظَلَمُوكَ »

وفى الخبر[2] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُوَافِي الْقِيَامَةَ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ لَوْخَلُصَتْ لَهُ لَدَخَلَ الْجَنَّةَ فَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا وَشَتَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْتَصُّ لِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لَايَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ قَدْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَالِبُونَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّآتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكًّا إِلَى النَّارِ

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك، فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وقال بعض السلف: كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لى، فتحرجت، ثم قلت تراب وماتراب؟ فتربته، فهتف بى هاتف: سيعلم من استخف بتراب مايلقى غدا من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري، فرآه مقلوب الثوب، فعرّفه، فمدّ يده ليصلحه، ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن ذلك فقال: إنى لبسته لله تعالى، ولا أريد أن أسويه لغير الله. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك، فيقول: بلى أنت أخذت لبنة من حائطى، وأخذت خيطا من ثوبى

(١) حديث ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الحسنة مايستوجب به الجنة ـ الحديث: وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك ـ الحديث: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شبيب بن سعد البلوى مختصرا ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا ـ الحديث: تقدم مع اختلاف

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين . فإن كنت من أولى العزم والنهى، ولم تكن من المغترين ، فانظر لنفسك الآن ، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ، ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ؟ وماذا تقصد ؟ وما الذى تنال به من الدنيا ؟ وما الذى يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك ، وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك ، فإن ترك الفعل فعل، ولا بد له من نية صحيحة ، فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ، ومشهورات الخيرات ، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار، فقد روي عن زكريا عليه السلام، أنه كان يعمل فى حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم ، فقدموا له رغيفه ، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ،فدخل عليه قوم ، فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده ، وظنوا أن الخير فى طلب المساعدة فى الطعام ، فقال: إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إليّ الرغيف لأتقوّى به على عملهم ، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى ، وضعفت عن عملهم . فالبصير هكذا ينظر فى البواطن بنور الله، فإن ضعفه عن العمل نقص فى فرض، وترك الدعوة إلى الطعام نقص فى فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض

وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل . فما كلمنى حتى لعق أصابعه ثم قال. لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه، فإن أجابه فأكل فعليه وزران، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق ، وبالثانى تعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه . فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته فى سائر الأعمال، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار

بيان

أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيقول فى نفسه عند تدريسه ، أو تجارته ، أو أكله : نويت أن أدرس لله ، أو أتجر لله ، أو آكل لله . ويظن ذلك نية . وهيهات ، فذلك حديث نفس ،

وحديث لسان وفكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها، إما عاجلا، وإما آجلا. والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه. أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي. فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء، وميله إليه، وتوجهه نحوه، إلا باكتساب أسبابه. وذلك مما قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس، الملائم لها. ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه. وذلك لا يمكن في كل وقت. والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص، وبالأحوال، وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا، ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث. ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد! وإذا لم يغلب على قلبه[1] أن إقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها، لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية.

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوي أولا إيمانه بالشرع، ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد من ثقل المؤنة، وطول التعب، وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب، فتحركه تلك الرغبة، وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد. فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب، كان ناويا. فإن لم يكن كذلك، فما يقدره في نفسه، ويردده في قلبه من قصد الولد، وسواس وهذيان

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات، إذ لم تحضرهم النية. وكانوا يقولون. ليس تحضرنا فيه نية، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته، وكان يسرح شعره، أن هات المدرى. فقالت: أجيء

(١) حديث النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: تقدم في آداب النكاح

بالمرآة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم . فقيل له فى ذلك ، فقال : كان لى فى المدرى نية ، ولم تحضرنى فى المرآة نية ، فتوقفت حتى هيأها الله تعالى

ومات حماد بن سليمان ، وكان أحد علماء أهل الكوفة ، فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته؟ فقال لو كان لى نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول : إن رزقنى الله تعالى نية فعلت

وكان طاوس لا يحدث إلا بنية . وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فيبتدىء . فقيل له فى ذلك ، قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتنى نية فعلت

وحكي أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل ، فطلبه منه ، فنظر فيه أحمد صفحا ورده ، فقال : مالك ؟ قال فيه أسانيد ضعاف . فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر ، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت . قال أحمد : فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت . فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا ، فقد انتفعت به

وقيل لطاوس : ادع لنا . فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا فى طلب نية لعيادة رجل منـــذ شهر فما صحت لى بعد

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ قال ليس من نيتى : وهذا لأن النية تتبع النظر ، فإذا تغير النظر تغيرت النية . وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية ، لعلمهم بأن النية روح العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب . وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها

نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه ، لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ، ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ، ويرغب نفسه فيها ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة ، فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، فلا تتيسر للراغب فى الدنيا ،

وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها

ونيات الناس فى الطاعات أقسام . إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف ، فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة فى الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة ، لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة ، وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا . وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن ، وموضع قضاء وطرهما الجنة . فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ، كالأجير السوء ، ودرجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله ، إذ أكثر أهل الجنة البله

وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه ، حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فى الجنة ، فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم . فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين ، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ، بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين ، أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين . بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم ، يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها ، وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلا ، ولا تلتفت إليه . ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن ، ولا يزالون مختلفين ، كل حزب بما لديهم فرحون ، ولذلك خلقهم

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام ، فقال له : كل الناس يطلبون منى الجنة إلا أبا يزيد ، فإنه يطلبنى . ورأى أبو يزيد ربه فى المنام فقال : يارب ، كيف الطريق إليك ؟ فقال اترك نفسك وتعال إلىّ . ورؤي الشبلى بعد موته فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد ، قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟

فقال أي خسارة اعظم من خسران لقائى !

والغرض أن هـذه النيات متفاوتة الدرجات ، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمـالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإنا نقول : من حضرت له نية فى مباح ، ولم تحضر فى فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة ، لأن الأعمـال بالنيات ، وذلك مثل العفو ، فإنه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربمـا تحضره نية فى الانتصار دون العفو ، فيكون ذلك أفضل

ومثل أن يكون له نية فى الأكل ، والشرب ، والنوم ، ليريح نفسه ، ويتقوّى على العبادات فى المستقبل ، وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم ، والصلاة ، فالأكل ، والنوم هو الأفضل له . بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها ، وسكن نشاطه ، وضعفت رغبته ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه ، فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسى بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عونا لى على الحق . وقال علي كرم الله وجهه . روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم . بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعده القاصر فى الطب ، وإنما يبتغى به أن يعيد أولا قوّته ليحتمل المعالجة بالضد . والحاذق فى لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ، ليتوصـل بذلك إلى الغلبـة . والضعيف البصيرة قد يضحك به ، ويتعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قـد يفر بين يدي قرينه ، ويوليـه دبره ، حيلة منه ليستجره إلى مضيق ، فيكر عليه فيقهره

فكذلك سلوك طريق الله تعالى ، كله قتال مع الشيطان ، ومعالجـة للقلب ، والبصـير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى للمريد أن يضمر إنكارا على ما يراه من شيخه ، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغى أن يقف عند حد بصيرته ، وما لا يفهمـه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما ، وينال درجتهما ، ومن الله حسن التوفيق

الباب الثانى

فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الاخلاص

قال الله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [1]) وقال (أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ [2]) وقال تعالى (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ [3]) وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [4]) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلاَثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ » وعن [2] مصعب بن سعد ، عن أبيه قال . ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضُعَفَائِهَا وَدَعْوَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ وَصَلاَتِهِمْ »

وعن [3] الحسن قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الإِخْلاَصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي » وقال علي بن أبى طالب كرم

﴿ الباب الثانى فى الاخلاص ﴾

(١) حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله : الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير

(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن ان له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم

(٣) حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الاخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث علي بن أبى طالب بسند ضعيف

---

(١) البينة : ٥ (٢) الزمر : ٣ (٣) النساء : ١٤٦ (٤) الكهف : ١١٠

الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم [1] قال لمعاذ بن جبل « أَخْلِصِ ٱلْعَمَلَ يُجْزِكَ مِنْهُ ٱلْقَلِيلُ »

وقال عليه السلام [2] « مَامِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلّهِ ٱلْعَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ » وقال عليه السلام [3] « أَوَّلُ مَنْ يُسْئَلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ ٱلْعِلْمَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاصَنَعْتَ فِيمَا عَلِمْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ ٱلْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ عَالِمٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ ٱلْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَوَادٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ ٱلْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ شُجَاعٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ » قال أبو هريرة . ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال « يَاأَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية ، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [1]) الآية

وفى الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا ، فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فغضب لذلك ، وأخذ فأسه على عاتقه ، وقصد الشجرة ليقطعها . فاستقبله إبليس فى صورة شيخ ، فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة : قال وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك

---

(١) حديث انه قال لمعاذ أخلص العمل يجزك منه القليل : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع

(٢) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما : ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن أبى موسى وقد تقدم

(٣) حديث اول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم . الحديث : وقد تقدم

---

(١) هود : ١٥

فقال: إن هذا من عبادتي . قال: فإني لا أتركك أن تقطعها . فقاتله ، فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض ، وقعد على صدره ، فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلمك .فقام عنه ،فقال له إبليس: ياهذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ، وما تعبدها أنت ، وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الأرض ، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها ، وأمرهم بقطعها . فقال العابد : لابد لى من قطعها . فنابذه للقتال ، فغلبه العابد وصرعه ، وقعد على صدره ، فعجز إبليس ، فقال له : هل لك فى أمر فصل بيني وبينك ، وهو خير لك وأنفع ؟ قال وماهو؟ قال أطلقني حتى أقول لك . فأطلقه ، فقال إبليس . أنت رجل فقير لاشيء لك ، إنما أنت كلٌّ على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك، وتواسي جيرانك،وتشبع وتستغني عن الناس ،قال نعم . قال فارجع عن هذا الأمر، ولك عليّ أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين ، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك ، وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى يغرس مكانها ، ولا يضرهم قطعها شيئا ، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها . فتفكر العابد فيما قال ،وقال صدق الشيخ ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة . فعاهده على الوفاء بذلك ، وحلف له . فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه ، فأخذهما ، وكذلك الغد ،ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا ، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة . فقال كذبت والله ، ماأنت بقادر على ذلك ، ولا سبيل لك إليها . قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة ، فقال هيهات، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه ، وقعد إبليس على صدره وقال . لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك . فنظر العابد ، فإذا لا طاقة له به . قال ياهذا غلبتني فخل عني ،وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن . فقال لأنك غضبت أول مرة لله ، وكانت نيتك الآخرة ، فسخرني الله لك . وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا ، فصرعتك

وهذه الحكاية تصديق قوله تعالي (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) إذ لا يتخلص

---

(١) ص : ٨٣

العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ؟ وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس . وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السختياني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صفي له ، ومن خلط خلط عليه

ورؤي بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك ؟ فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لقطتها من طريق ، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات . وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات ، وموت حمار ليس فيها ! فقيل لي إنه قد وجه حيث بعثت به ، فإنه لما قيل لك قد مات ، قلت : في لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك ، وفي رواية ، قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي ، فوجدت ذلك لا علي ولا لي ، قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه ، وقال يحيي بن معاذ : الإخلاص يميز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من الفرث ، والدم ، وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ، ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء ، من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء ، فسرقت درة ، فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة ، حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص ، وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة ، فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة

وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمر به بعض إخوانه من الأبدال ، فساره بشيء ، فقال أبو عبيد . لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد . ماقال لك ؟ فقال . سألني أن أحج معه ، قلت . لا ، قلت ، فهلا فعلت ، قال ليس لي في الحج نية ، وقد نويت

أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف أن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأني أدخل في عمل الله شيئا غيره ، فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة ، ويروى عن بعضهم ، قال . غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت . أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها ، فاشتريتها ، فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه . اكتب الغزاة فأملى عليه . خرج فلان متنزها ، وفلان مرائيا ، وفلان تاجرا ، وفلان في سبيل الله ، ثم نظر إلي ، وقال . اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت . الله الله في أمري ، ماخرجت أتجر ، وما معي تجارة أتجر فيها ، ما خرجت إلا للغزو ، فقال ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت ، وقلت . لاتكتبوني تاجرا فنظر إلى صاحبه ، وقال . ماترى فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى

وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما ، خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو ، وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز ، ويقال : العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص ، وقال بعضهم . إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ، ومنعه ثلاثا ، أعطاه صحبة الصالحين ، ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ، ومنعه الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ، ومنعه الصدق فيها ،

وقال السوسي : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط ، وقال الجنيد . إن لله عبادا عقلوا ، فلما عقلوا عملوا ، فلما عملوا أخلصوا ، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع

وقال محمد بن سعيد المروزي . الأمر كله يرجع إلى أصلين ، فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل ، وتخلص فيما تعمل ، فإذاً أنت قد سعدت بهذين وفزت في الدارين

بيان

حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا ، قال الله تعالى (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا

سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ[1]) فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به . والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية ، والشرك منه خفي ، ومنه جلي ، وكذا الإخلاص ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات ، وقد ذكرنا حقيقة النية ، وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا ، بالإضافة إلى المنوي ، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ، ولسنا نتكلم فيه ، إذ قد ذكرنا ما يتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ، وأقل أموره ماورد فى الخبر ، من (١) أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام ، يامرائي ، يامخادع ، يامشرك ، ياكافر ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أو ليهرب عن عدو له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه ، فأراد أن يستريح منه أياما ، أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها ، أو يصلي بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله ، أو رحله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث ، أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا فى الدنيا

---

(١) حديث ان المرائي يدعى يوم القيامة يامرائي يامخادع . الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب السنة والاخلاص وقد تقدم

---

[1] النحل : ٦٦ .

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه ،أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ لينتظف ، أو يتبرد ، أو اغتسل لتطيب رائحته ، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد ، أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن ، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام ، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها ، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض ، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله ، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ؛ فهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه ، بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتتطرق إليه الشرك ، وقد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركة

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل . من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ، وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب ، إما أن تكون في رتبة الموافقة ، أو في رتبة المشاركة ، أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية

وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني ، أو أقوى منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره ، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها ، قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار ، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ،

ويتمنى أن لو كفي شر الجوع ، حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول في الزائد على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده ، لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته. فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا

فإذاً علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص . وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغرورا ، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها ، كما حكي عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول ، لأني تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي ، وسبب استراحة قلبي ، من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا [1]) وبقوله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [2]) وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ، ويقول . غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ،

---

(١) الزمر : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الكهف : ١٠٣

ووعظه السلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدّعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا، وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

وليت شعرى لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدى أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه، أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق، مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به. وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة، والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع، ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان، والنفس، وطال اشتغاله بامتحانها. فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق، يغرق فيه الجميع، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان

أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات، والخالص ماصفا

(1) ص: ٨٣

عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض ، وفى معناه قول ابراهيم بن أدهم. الإخلاص صدق النية مع الله تعالى ، وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب ، وقال رويم : الإخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا ، والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين ، وهو الإخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار ، فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة ، وإلا فهو فى طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ ، وقال هذا من صفات الإلهية ، وما ذكره حق ،ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط ، فأما التلذذ بمجرد المعرفة ، والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه ، وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة ، وملازمة الشهود ، للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ، ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ ،وطاعتهم لحظ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره

وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط ، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ، ولذلك قال بعضهم : الإخلاص فى العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ، ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء ، وقد قيل :الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق ، وهذا أجمع للمقاصد ، وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب ، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء ، وكذلك قول الخواص .من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية ، وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الأعمال؟فقال: الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد ، وهذا أيضا

تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص، وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات، وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وقيل ٠ الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها

وهذا هو البيان الكامل، والأقاويل فى هذا كثيرة، ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، [1] إذ سئل عن الإخلاص فقال « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك؛ وتستقيم فى عبادته؛ كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا

بيان

درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص، بعضها جلي وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء، فلنذكر منه مثالا فنقول. الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا فى صلاته، ثم نظر إليه جماعة، أو دخل عليه داخل، فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح، ولا يزدريك، ولا يغتابك، فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمر فى صلاته كما كان، فيأتيه فى معرض الخير

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت: لم أره بهذا اللفظ للترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم.

ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ، ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثر عنك ، ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه ، فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة ، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ، ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه ، فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة . ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ، فهذا محض التلبيس ، بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلى غيره ، فيكون له ثواب عليه ، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس ، فمن اقتدى به أثيب عليه ، وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه فى ذلك ، ويتنبه لكيد الشيطان ، ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ، ويصلى فى الملأ أيضا كذلك ، فهذا أيضا من الرياء الغامض ، لأنه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفاته فى الخلوة والملإ إلى الخلق ، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته . ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ، ثم يستحي من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلاء والملأ ، وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات فى الخلاء والملأ جميعا ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملأ والخلاء جميعا ، وهذا من المكايد الخفية للشيطان

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ، ومن أنت واقف بين يديه ، واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه ، وتخشع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص ،

وهو عين المكر والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ، ولكان لايختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة ، كما يألفه فى الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سببا ، فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو يعد خارج عن صفو الإخلاص ، مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا [1] الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره ، وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى ، لايغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات ، حتى فى كحل العين ، وقص الشارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ، فإن هذه سنن فى أوقات مخصوصة ، وللنفس فيها حظ خفي ، لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ، ويقول هذه سنة لاينبغي أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها ، لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه ، وما لايسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع ، فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف

وقد يكون المحرك الخفي فى سره هو الأنس بحسن صورة المسجد ، واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك فى ميله إلى أحد المسجدين ، أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع ، وكدورات النفس ، ومبطل حقيقة الإخلاص ، لعمري الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة . فمنها مايغلب ، ومنها مايقل لكن يسهل دركه ، ومنها مايدق بحيث لايدركه إلا الناقد البصير ، وغش القلب ، ودغل الشيطان وخبث النفس ، أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال ، حتى يخلص عنها ، فإن الجاهل نظره

(١) حديث الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء : تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء

إلى ظاهر العبادة واغتراره بها، كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموه واستدارته، وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير، خير من دينار يرتضيه الغر الغبي

فهكذا يتفاوت أمر العبادات ، بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال ، لا يمكن حصرها وإحصاؤها ، فلينتفع بما ذكرناه مثالا ، والفطن يغنيه القليل عن الكثير ، والبليد لا يغنيه التطويل أيضا ، فلا فائدة في التفصيل

بيان

حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى ، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس ، فقد اختلف الناس في إن ذلك هل يقتضي ثوابا ، أم يقتضي عقابا ، أم لا يقتضي شيئا أصلا ، فلا يكون له ولا عليه ، وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا ، وهو سبب المقت والعقاب ، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب ، وإنما النظر في المشوب وظاهر [1] الأخبار تدل على أنه لا ثواب له ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه ، والذي ينقدح لنا فيه ، والعلم عند الله ، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث ، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع ، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب ، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ، ولم يمتزج به شائبة التقرب ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، وهذا لقوله تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1])

---

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على ان العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الاخبار عن تعارض: أبو داود من حديث أبي هريرة ان رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له ـ الحديث : وللنسائي من حديث أبي أمامة باسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الاجر والذكر ماله فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغي به وجهه وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجران أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨

ولقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [1]) فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد

وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات ، وإنما قوتها بالعمل على وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب ، فقد قوّى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك ، والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما ، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ، ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله ، أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده ، فقد عاد إلى ما كان ، فلم يكن له ولا عليه . وإن كان الفعل مما يقربه شبرين ، والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » فإذا كان المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة

ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة ، صح حجه ، وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة ، وتجارته غير موقوفة عليه ، فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي ، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع ، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب .

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها : تقدم فى رياضة النفس وفى التوبة

(١) النساء : ٥٠

وماعندي أن الغزاة لايدركون فى أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار فى جهة تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لاغنيمة فيها. ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحيط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي، والمزعج القوى، هو إعلاء كلمة الله تعالى ؛ وإنما الرغبة فى الغنيمة على سبيل التبعية ؛ فلا يحبط به الثواب. نعم لايساوى ثوابه ثواب من لايلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا ؛ فإن هذا الالتفات نقصان لامحالة

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفى معناه شوب طلب الغنيمة، والتجارة، وسائر الحظوظ، فقد روى [1] طاوس وغيره من التابعين ، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف، أو قال: يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر ، فلم يدر مايقول له ، حتى نزلت (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [1]) وقد قصد الأجر والحمد جميعا. وروى [2] معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَدْنَى الرِّيَاء شِرْكٌ » وقال [3] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ »

وروي عن عبادة، أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة، من عمل لى عملا فأشرك معى غيرى ودعت نصيبي لشريكى . وروى [4] أبو موسى أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه فى سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ

---

(١) حديث طاوس وعدة من التابعين ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت فمن كان يرجوا لقاء ربه : ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقدتقدم فى ذم الجاه والرياء

(٢) حديث معاذ أدنى الرياء شرك : الطبرانى والحاكم وتقدم فيه

(٣) حديث أبى هريرة يقال لمن أشرك فى عمله خذ أجرك ممن عملت له : تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبى هريرة من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه وفى رواية مالك فى الموطأ فهو له كله

(٤) حديث أبى موسى من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله : تقدم فيه

---

(١) الكهف : ١١٠

هِيَ ٱلْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ » وقال عمر رضي الله عنه : تقولون فلان شهيد ، ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا . وقال[1] ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ »

فنقول : هذه الأحاديث لاتناقض ماذكرناه . بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا ، كقوله « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا » وكان ذلك هو الأغلب على همه ، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان ، لا لأن طلب الدنيا حرام ، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام ، لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها . وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ، ولم يكن له ولا عليه ، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب

ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا فى خطر ، فإنه لا يدرى أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [1]) أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط

ويجوز أن يقال أيضا : منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص فى الغزو ، وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة ، وقدر على غزو طائفتين من الكفار ، إحداهما غنية ، والأخرى فقيرة ، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة ، لا ثواب له على غزوه ألبتة : ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك . فإن هذا حرج فى الدين ، ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب . فأما أن يكون فى إحباطه فلا

نعم الإنسان فيه على خطر عظيم ، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء ، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص ، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه ، وإن بالغ فى الاحتياط

فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول ، خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر

---

(١) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا فهو له : تقدم فى الباب الذى قبله

(١) الكهف : ١١٠

وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة .ولذلك قال سفيان رحمه الله : لاأعتد بما ظهر من عملي . وقال عبدالعزيز بن أبى روّاد : جاورت هذا البيت ستين سنة ، وحججت ستين حجة، فما دخلت فى شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى ،فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولا عليّ . ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أباسعيد الخراز ويخف فى أعماله ، فتكلم أبوسعيد فى الإخلاص يوما يريد إخلاص الحركات ،فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص ، فتعذر عليه قضاء الحوائج ،واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره ، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها . فقال أبوسعيد : لاتفعل ،إذ الإخلاص لايقطع المعاملة ، فواظب على العمل، واجتهد فى تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل ، وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء ، وفعله لأجل الخلق شرك

الباب الثالث

فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ [١]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ وَالْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً »

ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء فى معرض

﴿ الباب الثالث فى الصدق ﴾

(١) حديث ان الصدق يهدى الى البر ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

---

(١) الأحزاب : ٢٣

المدح والثناء فقال (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [١]) وقال (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا [٢]) وقال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [٣])

وقال ابن عباس : أربع من كنّ فيه فقد ربح ، الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر

وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من النـاس

وقال أبو عبد الله الرملي : رأيت منصورا الدينورى فى المنام ، فقلت له : مافعل الله بك قال : غفر لى ، ورحمنى ، وأعطانى مالم أؤمل . فقلت له : أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق . وأقبح ماتوجه به الـكذب

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : مارأيت صدقا فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد ابن على الكتانى قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق ، والصـدق ، والعدل . فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على العقول

وقال الثوري فى قوله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ [٤]) قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السـلام : ياداود ، من صـدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته

وصاح رجل فى مجلس الشبلى ، ورمى نفسه فى دجلة ، فقال الشبلى : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام ، وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون

وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال ، أنها إذا صحت ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض . الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى فى الأعمال وطيب المطعم

وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة : اثنين وعشرين حرفا ، كان صلحاء بنى إسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها . لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهـل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفـكر ،

(١) مريم : ٤١ (٢) مريم : ٥٤ (٣) مريم : ٥٦ (٤) الزمر : ٦٠

ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سئية أخزى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذلّ من الطمع ، ولا غنى أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت ، . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخره

وقال أبو بكر الورّاق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى ، والرفق فيما بينك وبين الخلق

وقيل لذى النون . هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة فقيل زدنا : فقال : التقى ، والحياء ، وطيب الغذاء

وعن [1] ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال «قَوْلُ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِالصِّدْقِ» . وعن الجنيد فى قوله تعالى (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ [1]) قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر

بيان

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صدّيق ؛ لأنه مبالغة فى الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق : لم أجده بهذا اللفظ

(١) الاحزاب : ٨

الصدق الأول . صدق اللسان . وذلك لايكون إلا فى الأخبار .أو فيما يتضمن الأخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ماهي عليه فهو صادق

ولكن لهذا الصدق كمالان . أحدهما :الاحتراز عن المعاريض ، فقد قيل : فى المعاريض مندوحة عن الكذب . وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ماهو عليه فى نفسه . إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال ، وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم ، وفى الحذر عن الظلمة ، وفى قتال الأعداء ، والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه ،لأن الصدق ماأريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه

نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا [1] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره ، وذلك كي لاينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شيء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ أَنْمَى خَيْراً » ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده ، وصدقت نيته . وتجردت للخير إرادته ، صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه

ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ماحكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره ، فقال لزوجته . خطى بأصبعك دائرة ، وضعى الأصبع على الدائرة ، وقولى ليس

---

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره :متفق عليه من حديث كعب بن مالك

(٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس ـ الحديث : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط وقد تقدم

هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدقا ،وأفهم الظالم أنه ليس فى الدار .

فالكمال الأول فى اللفظ : أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة

والكمال الثانى ، أن يراعي معنى الصدق فى ألفاظه التي يناجى بها ربه ، كقوله : وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض ، فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى ، مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته ، فهو كذب . وكقوله : إياك نعبد . وقوله : أنا عبد الله . فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية ، وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامه صدقا . ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله : أنا عبد الله ، لعجز عن تحقيقه ، فإنه إن كان عبدا لنفسه ، أو عبداً لدنيا أو عبدا لشهواته ، لم يكن صادقا فى قوله .

وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له . كما قال عيسى عليه السلام : ياعبيد الدنيا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحُلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ » سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له . وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى ، فصار حرا مطلقا . فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا ، فخلت فيه العبودية لله ، فتشغله بالله ومحبته ، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته ، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية ، وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو ، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد ، فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا ، وصار مفقودا لنفسه ، موجودا لسيده ومولاه ، إن حركه تحرك ، وإن سكنه سكن ، وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب ، والتماس ، واعتراض ، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى ، فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبوديه لله تعالى . وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا . فهذا هو معنى الصدق فى القول

---

(١) حديث تعس عبد الدينار ـ الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم

الصدق الثاني : في النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ، كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث [١] الثلاثة ، حين يسئل العالم ماعملت فيما علمت، فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم، فإنه لم يكذبه ، ولم يقل له لم تعمل ، ولكنه كذبه في إرادته ونيته .

وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد . وكذلك قول الله تعالى(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [١]) وقد قالوا إنك لرسول الله ، وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر ، وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد مايقول ، فكذب في دلالته بقرينة الحال على مافي قلبه. فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به . فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا

الصدق الثالث :صدق العزم ، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل. فيقول في نفسه. إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعه، أو بشطره، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قُتلت ، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق

فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل، وتردد ، وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق هٰهنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال لفلان شهوة صادقة ، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي ، أو كانت ضعيفة . فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات . وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت ـ الحديث : تقدم .

(١) المنافقون : ١٠

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبى بكر الصديق .

الصدق الرابع : فى الوفاء بالعزم . فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال ، إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم . وهذا يضاد الصدق فيه . ولذلك قال الله تعالى (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ [(١)]) فقد روي [(١)] عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع . قال فشهد أحدا فى العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال واها لريح الجنه ، إني أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون ، ما بين رمية ، وضربة ، وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا بثيابه . فنزلت هذه الآية (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ [(٢)])

[(٢)] ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير ، وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ [(٣)]) . وقال [(٣)] فضالة بن عبيد : سمعت

---

(١) حديث أنس ان عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول رجال صدقوا الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا ان هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر

(٢) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية : أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا

(٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان ـ الحديث : الترمذى وقال حسن

(١ ، ٢ ، ٣) الاحزاب : ٢٣

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا » ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته. قال الراوى . فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَرَجُلٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَتَاهُ سَهْمٌ غَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَرَجُلٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ » . وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود ، فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن ، فبخلوا به ، فنزلت (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ [1])

وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فقال (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [2]) فجعل العزم عهدا، وجعل الخلف فيه كذبا، والوفاء به صدقا

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن النفس قد تسخوا بالعزم، ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال .. لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا أجده الآن ، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم

وقال أبو سعيد الخراز . رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى: ما الصدق؟ قلت الوفاء بالعهد . فقالا لى : صدقت . وعرجا إلى السماء

الصدق الخامس : في الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر . وهذا مخالف ماذكرناه من ترك الرياء ، لأن المرائي هو الذى يقصد ذلك ورب

(١ ، ٢) التوبة : ٧٥ ، ٧٦، ٧٧

واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ، ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى ، وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدي شهوة من شهواته . فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال . وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق فى عمله ، وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ، ولا مرائيا إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ، ولبس ثياب الأشرار ، كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره ، فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن

فإذاً مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ، ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « اللَّهُمَّ اجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْرًا مِنْ عَلاَنِيَتِي وَاجْعَلْ عَلاَنِيَتِي صَالِحَةً » وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف . وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل . وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا .

إذا السر والإعلان فى المؤمن استوى ... فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق ... ومغشوشه المردود لايقتضى المنا

وقال عطية بن عبد الغافر . إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة ، يقول : هذا عبدى حقا : وقال معاوية بن قرة : من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار ! وقال عبد الواحد ابن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى ، عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ، ويبكى . وقال أبو يعقوب النهرجورى : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية ، فإذاً مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق

(١) حديث اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى ـ الحديث : تقدم ولم أجده

في الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ،والزهد ، والرضا، والتوكل ، والحب ،وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبـــاد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها . وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته ، سمي صاحبه صادقا فيـه كما يقال . فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق . وهـذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [١]) إلى قوله (أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [٢]) وقال تعالى(وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [٣]) إلى قوله (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا [٤]) [١] وسئل أبو ذر عن الإيمان ،فقرأ هذه الآية.فقيل له سألناك عن الإيمان . فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية

ولنضرب للخوف مثلا . فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ، ولكنه خوف غير صادق ، أي غير بالغ درجة الحقيقة . أما تراه إذا خاف سلطانا ، أو قاطع طريق في سفره ، كيف يصفر لونه ، وترتعد فرائصه. ويتنغص عليه عيشه ، ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده ؟ وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة ، والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عنـــد جريان معصية عليه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[٢] « لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلاَ مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا »

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولـكن لـكل عبد منه حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي . فإذا قوي سمي صادقا فيه

فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لهـا ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام[٣] « أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ » فقال لا تطيق ذلك

---

(١) حديث أبي ذر سألته عن الايمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله أولئك الذين صدقوا رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له اسنادا

(٢) حديث لم أر مثل النار نام هاربها ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك ـ الحديث : تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

(١ ، ٢) الحجرات : ١٥ (٣ ، ٤) البقرة : ١٧٧

قال « بَلْ أَرِنِي » فواعده البقيع فى ليـــلة مقمرة ، فأتاه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعنى جوانب السماء فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَاظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ هَكَذَا » قال وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع، يعنى كالعصفور الصغير . فانظر ماالذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة ، فهذا هو الصدق فى التعظيم . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَجِبْرِيلُ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى » يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير . وكذلك الصحابة كانوا خائفين ، وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله . وقال مطرف : مامن الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الحمق أهون من بعض. وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالْأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ اللهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدَهَا أَحْقَرَ حَقِيرٍ »

فالصادق إذاً فى جميع هذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لانهاية لها . وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوي ، وفيما سواهن ضعيف : ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها . ولاشيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها . وماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ماظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبي عليه السلام. فهذا صدق

---

(١) حديث مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملا الاعلى كالحلس البالى من خشية الله ـ الحديث : محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن محمد بن عمير ابن عطارد وهذا مرسل

(٢) حديث لايبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير : لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع

فى هذه الأمور. وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة، واتبعوا الجنائز ، ولم يبلغوا هذا المبلغ

فهذه هي درجات الصدق ومعانيه ، والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى . نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة: صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين . قال الله تعالى. (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ [1]) وصدق الطاعة لأهل العلم والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض. وكل هذا يدور على ما ذكرناه فى الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق ، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام

وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة ، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك ، فقال تعالى (هُوَ اجْتَبَاكُمْ [2]) . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال ، لأنظر كيف صدقه . فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا ، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى .

فإذاً من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا ، وكراهة اطلاع الخلق عليها

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

---
(١) الحديد : ١٩ (٢) الحج : ٧٨

فهرست الجزء الرابع عشر